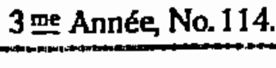
3 me Année, No. 114. — Lundi-9-9-1935



بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١٤ « القاهرة في يوم الاثنين ١١ جمادى الثانية سنة ١٣٥٤ — ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

مصر وعصبة جنيف

تحدث بعض الكتاب لمناسبة الموقف الدقيق الذي تقفه مصر من النزاع الايطالي الحبشي ، عما كانت تجنيه مصر من المزايا لو أنها كانت عضواً في عصبة الأمم ، وعما كانت تستطيع أن تؤديه في الظرف الحاضر لصون حقوقها لو أتيح لها أن تبسط وجهة نظرها أمام العصبة ؛ وفي رأي هؤلاء أن مصر تخسر كثيراً إذ تحرم في هذه الآونة من رفع صوتها بطريق العصبة ، وأن السياسة الانكليزية هي التي عملت لاسكات صوتها وحالت بينها وبين جنيف

ولسنا من رأي هؤلاء ، ولسنا ممن يحسن الظن بالعصبة ولا ممن يؤمنون بوسائلها ومبادئها وغاياتها ؛ ومن رأينا أن مصر لم تخسر شيئاً بابتعادها عن العصبة مهما كانت أسباب هذا الابتعاد

ويكفي أن نتأمل هذا المنظر الذي تقدمه إلينا عصبة جنيف ونحن نكتب هذه السطور ، لنقتنع بأن هذه الهيئة التي تزعم أنها رسول السلام والأخاء والحقوق الانسانية ، إنما هي شبح وستار فقط ، تعمل وراءه قوى الاستعمار ، فتأتمر وتتجاذب وتمثل مختلف

الأدوار التي تمكنها من أعناق الفرائس؛ والفرائس هي الأمم الشرقية التي سلبت أو يراد أن تسلب حرياتها باسم المدنية الأوربية والتهذيب الأوربي

* * *

فايطاليا والحبشة كلتاهما عضو في عصبة الأمم، وبينهما نزاع أثارته السياسة الايطالية عن عمد واصرار سابق، وقد طرح النزاع أمام عصبة جنيف منذ يناير المـاضي، فماذا فعلت العصبة لتطبق نصوص ميثاقها؟ لقد أوصت بالعمل على حسم النزاع بطريق التحكيم، ولكنها ما زالت تصغي إلى وعيد السياسة الايطالية، وتشهد نياتها وتصريحاتها الواضحة لغزو الحبشة وافتراسها؛ والحبشة تستغيث بالعصبة، والعصبة تسوف وتمد إيطاليا بالوقت اللازم لاستكمال أهبتها، وتفسح كل مجال لما تعرضه دول الاستعمار لاقتسام الحبشة أو فرض نوع من الحماية أو الانتداب عليها كوسيلة لارضاء إيطاليا وحسم النزاع وتأييد السلام، وإيطاليا خلال ذلك تبرق وترعد وتصرح بأن العصبة إذا حاولت أن تنحرف ضد المطامع الايطالية أو تنتقص من شرعيتها، فانها تصفع العصبة وتجرى مشيئتها بالعنف والقوة القاهرة

والدول الاستعمارية تحرك اليوم عصبة الأمم، وتوجهها علنا دون خفاء؛ وقد ابتدعت العصبة أو حملت أن تبتدع يوم قيامها نظام الانتداب خدعة غادرة تصفد بها عدداً من الأمم والشعوب التي وقعت في يد الحلفاء غداة النصر، والتي ما زالت ترزح تحت هذا الرياء الشفاف

ولم نشهد عصبة الأمم تنتصر مرة لدولة شرقية أو أمة مستضعفة مهما كان في جانبها الحق، ولا سيما إذا كانت هنالك مصلحة أو غاية لدولة من دول الاستعمار، سادة العصبة؛ ولم ينب عن الذاكرة بعد موقفها من النزاع بين انكلترا وتركيا على مسألة كردستان، وموقفها من النزاع بين انكلترا وإيران على مسألة جزائر البحرين، ثم موقفها من مسألة منشوريا وعجزها المطبق عن أن تعمل شيئاً لرد الاعتداء الياباني على الصين؛ بل لم يغب عن الذاكرة بعد موقفها من العراق يوم التحقت بها ويوم اشترطت عليها أفدح الشروط ثمناً لهذا الالتحاق

ولماذا نذهب بعيداً ونقلب صحف العصبة ونحن نشهد موقفها اليوم إزاء النزاع بين إيطاليا والحبشة؟ إن صفة الإعتداء الصارخ هنا تلحق إيطاليا بلا ريب، ومع ذلك فهل استطاعت العصبة أن ترفع صوتها ضد المتدي؟ وهل استطاعت حتى اليوم أن تفعل شيئاً ولو من الوجهة النظرية لغوث المجني عليه؟ وهي لن تفعل شيئاً بلا ريب حتى يقع المحتوم وتنقض إيطاليا على الفريسة تحاول التهامها، ولن ينفع الفريسة يومئذ إلا ما يتاح لها من وسائلها الخاصة للدفاع عن نفسها

* * *

وبعد، فمن هم السادة في العصبة؟ ومن هم الذين يشرفون على مجلسها ويوجهونه؟ هم أقطاب الاستعمار ومنظموه، وهم المغيرون على حريات الأمم، وهم المستمرئون لاستغلالها وإذلالها واستلاب حقوقها باسم المدنية الأوربية؛ هذه المدنية التي أضحت تلتمس ذريعة للسفك وافتراس الشعوب الآمنة

لقد كان قيام عصبة جنيف مهزلة وخديعة شائنة؛ مهزلة لأنها زعمت في ميثاقها أنها قامت لتحقق ما لم تستطع أن تحققه الأمم والانسانية جميعاً مدى الأحقاب، أعني منع الحرب وتحقيق العدالة الدولية، وحماية الضعيف من القوى بالوسائل السلمية؛ وخديعة شائنة لأنها تبطن وراء هذه المظاهر الخلابة دستور الاستعمار المنظم والانتهاك المثير لحقوق الأمم باسم الانتداب والمدنية والتهذيب وما إليها

فما الذي يمكن أن تجنيه مصر من الانتظام في عصبة جنيف؟ وأي ضير عليها إذ تبقى بعيدة عن هذه الهيئة المريبة العاجزة التي يفتضح أمرها اليوم؟ فعلى أولئك الذين يزعمون الغيرة على حقوق مصر — ومصر تعرفهم حق المعرفة — أن يقروا على أنفسهم أمثال هذه الدعاية التي تتم دائماً عما وراءها.

(***)

عربة اللُّقَطاء

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلستُ على ساحل الشاطبي (في اسكندرية) أتأملُ البحر ، وقد ارتفع الضُّحى ، ولكنَّ النهارَ لَدْنٌ ناعمٌ رطيبٌ كأن الفجرَ ممتدٌّ فيه إلى الظهر

وجاءت عربةُ اللُّقَطاء فأشرفتْ على الساحل ، وكأنها في منظرها غمامةٌ تتحرك إذ تملوها ظُلّةٌ كبيرة في لون الغَيْم . وهي كعربات النقل غير أنها مُسوَّرة بألواحٍ من الخشب كجوانب النعش تُمسِك من فيها من الصِّغار أن يتدحرجوا منها إذ هي تَدرُجُ وتَتَقلقل

ووقفتْ في الشارع لتُنزِلَ رَكْبَها إلى شاطئ البحر ؛ أولئك ثلاثون صغيراً من كل سَفِيحٍ ولَقيطٍ ومنبوذ ، وقد انكمشوا وتضاغطوا إذ لا يمكن أن تَمُطَّ العربةُ فتسعَهم ، ولكن يمكن أن يَكْتَبِسوا ويتداخلوا حتى يَشْغَلَ الثلاثةُ أو الأربعةُ منهم حَيِّزَ اثنين . ومن منهم إذا تألم سيذهبُ فيشكو لأبيه . . . ؟

وترى هؤلاء المساكينَ خليطاً مُلْتبِساً يُشعِرك اجتماعهم أنهم صيدٌ في شبكة لا أطفالٌ في عربة ، وبذلك منظرهم البائسُ القليلُ أنهم ليسوا أولادَ أمهاتٍ وآباء ، ولكنهم كانوا وساوس آباء وأمهات . . . .

* * *

هذه العربةُ يجرها جوادان : أحدهما أدهمُ والآخر كُمَيْت . فلما وقفتْ لوىَ الأدهمُ عُنقَه والتفت ينظر ؛ أيُفرِغون العربةَ أم يزيدون عليها . . ؟ أما الكُمَيْتُ فحرك رأسه وعَلك لجامَه كأنه يقول لصاحبه : إن الفكر في تخفيف العبء الذي تحمله يجعله أثقلَ عليك مما هو إذ يضيف إليه الهمَّ والهمُّ أثقل ما حملت نفس ؛ فما دمتَ في العمل فلا تتوهَّمِ الراحةَ فان هذا يوهِنُ القوة ، ويخذُلُ النشاط ، ويجلبُ السأم ، وإنما روحُ العمل الصبر ، وإنما روح الصبر العزم

ورآم الأدهمُ يُنزلون اللقطاء ، فاستخفَّه الطرب ، وحرك رأسه كأنما يسخر بالكميت وفلسفته ، وكأنما يقول له : إنما هو النُّزوعُ إلى الحرية ، فان لم تكن للحق ذاتها فلتكن لك في ذاتك . وإذا تعذَّرت اللذة عليك فاحتفظ بخيالها فانه وُصْلتكَ بها إلى أن تمكن وتتسهَّل ؛ ولا تجعلَنَّ كلَّ طباعك طباعاً عاملةً كادحةً وإلا فأنت أداة ليس فيها إلا الحياةُ كما تريدك ؛ وليكن لك طبعٌ شاعرٌ مع هذه الطباع العاملة فتكونَ لك الحياة كما تريدك وكما تريدها

إن الدنيا شيء واحد في الواقع ، ولكن هذا الشيء الواحدَ هو في كل خيال دنيا وحدها

* * *

وفي العربة امرأتان تقومان على اللقطاء ؛ وكلتاهما تزويرٌ للأم على هؤلاء الأطفال المساكين ؛ فلما سكنت العربة انحدرت منهما واحدة وقامت الأخرى تُناولها الصغار قائلةً : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة . . . إلى أن تم العدد وخلا قفصُ الدَّجاج من الدجاج . . !

ومشى الأطفالُ بوجوه يتيمة ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلِمةٌ ، مستكينة ، معترفة أن لا حق لها في شيء من هذا العالم إلا هذا الاحسان البخس القليل

جاءوا بهم لينظروا الطبيعة والبحر والشمس ، فغفل الصغار عن كل ذلك وصرَّفوا أعيُنَهم إلى الأطفال الذين لهم آباء وأمهات . . . .

* * *

وا كَبِدي أضنَى الأسى كَبِدي ؛ فقد ضاق صدري بعد انفساحه ، ونالني وَجعُ الفكر في هؤلاء التعساء ، وتمرتني منهم علّة كدسٍّ الحمى في الدم . وانقلبتُ إلى مَثواى ، والعربة وأهلُها ومكانُها وزمانها في رأسي

فلما طاف بي النوم طاف كل ذلك بي ، فرأيتني في موضعي ذاك وأبصرتُ العربة قد وقفت ، وتحاور الأدهمُ والكميت . فلما أفرغوها وشمر الجوادان بخفتها التفتا معاً ثم جمعا رأسيهما يتحدثان :

قال الكُميت : كنتُ قبل هذا أجرُّ عربة الكلاب التي

يقتلها الشُّرطة بالسُّم ، فآخذ الموتَ لهذه الكلاب المسكينة . ثم أرجع بهـا مَوتَى ؛ وكنتُ أذهبُ وأجيء في كل مَرادٍ ومضطرب من شوارع المدينة وأزقتها وسككها ولا أشعر بغير الثقل الذي أجره ؛ فلما ابتليت بعربة هؤلاء الصغار الذين يسمونهم اللقطاء ، أحسست ثقلاً آخر وقع نفسي وما أدرى ما هو ، ولكن يخيل إليّ أن ظل كل طفل منهم يُثقِل وحده عربة

قال الأدهم : وأنا فقد كنت أجرّ عربةَ القُمامة والأقذار ، وما كان أقذرَها وأنتنها ، ولكنها على نفسي كانت أطهرَ من هؤلاء وأنظف ، كنتُ أجدُ ريحَها الخبيثة ما دمتُ أجرها ؛ فاذا أنا تركتُ العربة استَرْوَحْتُ النسيمَ واستطعمت الجو ، أما الآن فالريحُ الخبيثةُ في الزمن نفسه كأن هذا الزمن قد أروح وأنتنَ منذ قُرنتُ بهؤلاء وعربتهم

قال الكميت : إن ابنَ الحيوان يستقبلُ الوجودَ بأمه إذ يكون وراءها كالقطعة المتممة لها ، ولا تقبل أمُّه إلا هذا ولا يصرِفُها عنه صارف ، فترغمُ الوجود على أن يتقبل ابنها وعلى أن يعطيه قوانينه . أما هؤلاء الأطفال فقد طردهم الوجودُ منه كما طرد الله آباءَهم وأمهاتهم من رحمته . وقد هُديتُ الآن إلى أن هذا هو سرٌّ ما نشعر به ؛ فلسنا نجر للناس ولكن للشياطين ..

* * *

وهنا وقف على حوذيّ العربة صديقٌ من أصدقائه فقال : من هؤلاء يا أبا على ؟

قال الحوذى : هؤلاء هؤلاء يا أبا هاشم

قال أبو هاشم : سبحان الله ، أما تترك طبعك في النكتة يا شيخ ؟

قال الحوذى : وهل أعرفهم أنا ؟ هم بضاعةُ العربة والسلام . اركبوا يا أولاد ، انزلوا يا أولاد . هذا كل ما أسمع

قال أبو هاشم : ولكن ما بالك ساخطاً عليهم ، كأنهم أولاد أعدائك ؟

قال الحوذى : ليت شعرى من يدرى أى رجل سيخرج من هذا الطفل ، وأية امرأة ستكون من هذه الطفلة ؟

انظر كيف تعلقت هذه البنتُ وعمرها سنتان ، في عُنق هذا الولد الذى كان من سنتين ابن سنتين [1] . . . . لا أرانى أحمل في عربتى أطفالاً كالأطفال الذين تحملهم المربيات إلى أبواب دُورهم فان هؤلاء اللقطاء يُحملون إلى باب الملجأ ، وهو بابٌ للحارات والسكك لا يأخذُ إلا منها ، فلا يرسل إلا إليها

أنا والله يا أبا هاشم ضيِّقُ الصدر ، كاسفُ البال من هذه المهنة ، ويخيَّل إليّ أنى لا أحمل في عربتى إلا الجنون والفجور والسرقة والقتل والدَّعارة والسُّكْر وعواصف وزوابع . . . .

قال أبو هاشم : ولكن هؤلاء الأطفال مساكين ، ولا ذنب لهم

قال الحوذى : نعم لا ذنب لهم ، غير أنهم هم في أنفسهم ذنوب . إن كل واحد من هؤلاء إن هو إلا جريمة تُثبت امتدادَ الاثم والشر في الدنيا . ولدتهم أمهاتهم لِغَيَّة [2]

فقطع صاحبُه عليه وقال : وهل ولَدَتْهُم إلا كما تلد سائر الأمهات أولادهن ؟

قال : نعم إنه عمل واحد ، غير أن أحواله في الجهتين مختلفة لا تتكافأ ؛ وهل تستوى حالُ من يشترى المتاع ، ومن يسرق المتاع ؟

ههنا باعثٌ من الشهوة قد عجز أن يسموَ سموَّه – وما سموُّه إلا الزواج – فتسفَّل وانحط ، ورجع فسقاً ، وعاد أوله على آخره . كان أوله حزماً فلا يزال إلى آخره حزماً ، ولا يزال أبداً يعود أوله على آخره . فلما حملت المرأة وفاءتْ إلى أمرها ، وذهب عنها جنونُ الرجلِ والرجلُ معاً ؛ انطوت للرجال على الثأر والحقد والضغينة ؛ فلا يكون ابنُ العار إلا ابن هذه الشرور أيضاً

والأمهاتُ يُعْدِدْنَ لأجنَّتهن الثيابَ والأكسيةَ قبل أن يولدوا ، ويهيِّئن لهم بالفكر آمالاً وأحلاماً في الحياة ، فيكتسبْنَهم في بطونهن شعورَ الفرح والابتهاج وارتقابَ الحياة المنيئة والرغبةَ في السموّ بها ؛ ولكن أمهات هؤلاء يعددن لهم الشوارعَ والأزقة منذ البدء ، ولا تترقب إحداهن

(١) تعبير بالنكتة على طريقة ظرفاء البلديين من أمثال (أبى على) ، والمراد أنه ابن أربع سنوات

(٢) ولدته لغية أى من سفاح وضده لرشدة بفتح الراء

طولَ أشهر حملها أن يجيئها الوليد بل أن يتركها حياً أو مقتولاً ؛ فيُورثهم بذلكَ وهم أجنّةٌ شعورَ الفقة والحسرة والبغض والمقت ، ويطبعهم على فكرة الخطيئة والرغبة فى القتل ، فلا يكون ابن العار إلا ابنَ هذه الرذائل أيضاً

وتظلّ الفاسقةُ مدة حملها تسعة أشهر فى إحساس خائف ، مترقب ، منفرد بنفسه ، منعزل عن الانسانية ، ناقم ، متبرم ، متستر ، منافق . فلو كان السَّفيحُ من أبوين كريمين لجاء ثعباناً آدمياً فيه سُمُّه من هذا الاحساس العنيف . ومتى ألقت الفاسقةُ ذا بطنها[1] قطعتْه لِنَتْوِهِ من روابط أهله وزمنه وتاريخه ورمت به ليموت ؛ فإن هلك فقد هلك ، وإن عاش لمثل هذه الحياة فهوموت آخرشرٌّ من ذاك ؛ ومهما يَتَوَلَّهُ الناسُ والمحسنون ، فلا يزال أوله يعود على آخره مما فى دمه وطباعه الموروثة ، ولايبرحُ جريمةً ممتدةً متطاولة ، ولا ينفكُّ قصةً فيها زانٍ وزانيةٌ ، وفيها خطيئة ولعنة

فهؤلاء كما رأيتَ أولادُ الجرأة على الله ، والتعدّى على الناس والاستخفافِ بالشرائع ، والاستهزاء بالفضائل ؛ وهم البغضُ الخارج من الحب ، والوقاحةُ الآتيةُ من الخجل ، والاستهتارُ المنبعث من الندامة ؛ وكل منهم مسئلةُ شر تطلب حلها أو تعقيدَها من الدنيا ، وفيهم دماءٌ فوّارة تجمع سمومها شيئاً فشيئاً كلما كبروا سنة فسنة

قال أبو هاشم : ألا لعنــة الله على ذلك الرجل الفاسق الذى اغترّ تلك المرأة فاستزلها وهوّرها فى هذه المَهواة . أكان حقُّ الشهوة عليه أعظمَ من حق هذا الآدمى . أما كان ينبغى أن يكون هذا الآخِرُ هو الأولَ فى الاعتبار ، فيعلمَ أن هذا اللقيط المسكين هو سبيله إلى صاحبته ، وهو البلاغُ إلى مايحاوله منها ، فيكون كأنما دخل بين الاثنين ثالث يراهما . . . فلعلهما يستحيان

قال الجوذيّ الفيلسوف : لعنة الله على ذلك الرجل ، ولعناتُ الله كلُّها ، ولعناتُ الملائكة والناس أجمعين على تلك المرأة التى انقادت له واغترت به . إن الرجل ليس شيئاً فى هــذه الجريمة فقد كانت بصقةٌ واحدة تُغرقُه ، وكانت صفعةٌ واحدة تهزمه ، وكان مع المرأة الحكومةُ والشرائعُ والفضائلُ ومعها جهنم أيضاً

ألم تعلم الحمقاء أن الرجــل الذى ليس زوجاً لها ليس رجلاً معها ، وأن الشريعــة لو أيقنت أنه رجل لما حرمت عليها أن تخالطه ؟ إنه ليس الرجل هو الذى ساوَرَ هــذه المرأة ، بل هى مادة الحياة التى رأت فى المرأة مُستودعها فتريد أن تقتحم إلى مقرها عَنوة أو خداعاً أو رضى أو كما يتفق ؛ إذ كان قانون هذه المادة أن توجد ، ولا شيء إلا أن توجد ؛ فلا تعرف خيراً ولا شراً ولا فضيلة ولا رذيلة

لأنهما يجب التحصين . ألصاعقــة المنقضّة ، أم المكان الذى يُخشى أن تنقضّ عليه ؟ لقد أجابت الشريعة الاسلامية : حصّنوا المكان ؛ ولكن المدنية أجابت : حصنوا الصاعقة . . . !

* * *

وكانت المرأتان الصاحبتان لجماعة اللقطاء تتناجيان ، فقالت الكبرى منهما :

يا حسرتا على هؤلاء الصغار المساكين . إن حياة الأطفال فيما فوق مادة الحياة ، أى فى سرورهم وأفراحهم ، وحياة هؤلاء البائسين فيما هو دون مادة الحياة ، أى فى وجودهم فقط

وكِبَرُ الأطفال يكون منه إدخالهم فى نظام الدنيا ، وكِبَرُ هؤلاء إخراجهم من « الملجأ » وهو كل النظام فى دنياهم ، ليس بعده إلا التشريدُ والفقر وابتداء القصة المحزنة

فقالت الصغرى : ولم لا يفرحون كأولاد الناس . أليست الطبيعةُ لهم جميعاً ، وهل تجمعُ الشمس أشعتها عن هؤلاء لتضاعفها لأولئك ؟

قالت الأخرى : الطبيعة ؟ تقولين الطبيعة ؟ إنك يا ابنتى عذراء لم تبدأ فى حياتك حياةٌ بعد ، ولم تجاوبى بقلبك القلبَ الصغير الذى كان تحت قلبك تسعة أشهر . وإنما أنت مع هؤلاء (موظفة) لا تعرفين منهم إلا جانب النظام وقانون الملجأ

لقد ولدت يا ابنتى خمسة أطفال ، وبالعين البليلة التى أنظر بها اليهم ، أنظر إلى هؤلاء فما أراهم إلا منقطعين من صلة القلب الانسانى ؛ يعبسُ لهم حتى الجو ، ويُظلم عليهم حتى النور ؛ ويبدو الطفل منهم على صغره كأنه يحملُ الغمَّ المقبلَ عليه طولَ عمره

---

(١) أى وضعت وولدت ، وهو تعبير عربى بليغ

يا لهْـفى على عودٍ أخضرَ ناعمٍ ريَّانَ كان للثمر فقيـل له : كن للحطب

الفرحُ يا ابنتى هو شعورُ الحىّ بأنه حىٌّ كما يهوى ، ورؤيته نفسه على ما يشاء فى الحياة الخاصة به . وهؤلاء اللقطاءُ فى حياةٍ عامة قد نُزِعت منها الأمُّ والأب والدار فليس لهم ماضٍ كالأطفال وكأنّهم يبدأون من أنفسهم لا من الآباء والأمهات

قالت الصغيرة : ولـكنهم أطفال

قالت تلك : نعم يا ابنتى هم أطفال ، غير أنهم طردوا من حقوق الطفولة كما طردوا من حقوق الأهل . وحسبك بشقاء الطفـل الذى لم يعرف من حنان أمه إلا أنها لم تقتله ، ولا من شفقتها إلا أنها طرحته فى الطريق

إن الطبيعة كلها عاجزة أن تعطىَ أحدهم مكاناً كالموضع الذى كان يتبوأه بين أمه وأبيه

ليس الأطفالُ يا ابنتى إلا صوراً مبهمة صغيرة من كل جمال العالم ، تفسرها أعينُ ذويهم بكل التفاسير القلبية الجميلة ؛ فأين أين العيون التى فيها تفسير هذه الصور اللقيطة ؟

ألا لعنةُ الله والملائكةِ والناس أجمعين على أولئـك الرجال الأنذال الطَّغام الذين أولدوا النساءَ هؤلاء المنبوذين . يزعمون لأنفسهم الرجولة فهذه هى رجولتهم بين أيدينا ، هذه هى شهامتهم ، هذه هى عقولهم ، هذه هى آدابُهم . . عجباً إن سيئاتِ اللصوص والقتلة كلَّـها يُنسى ويتلاشى ، ولـكن سيئات العشاق والمحبين تعيش وتـكبر . . .

أ كان ذنبُ المرأة أنها صادقةٌ فصدَّقت ، وأنها مخلصةٌ فأخلصت ، وأنها رقيقةٌ فلانت ، وأنها محسنة فرحمت ، وأنها سليمة القلب فانخدعت ؟

وا كبدى للمسكينة هل انخدعت إلا من ناحية الأمومة التى خلقت لها . هل انخدعت إلا للأم التى فيها ، وهل خدعها من ذلك اللئيم إلا الأبُ الذى فيه ؟

وا كَبدى لمن تُفجع بالنكبة الواحدة ثلاثَ فجائع : فى كرامتها التى ابتُذلت ، وفى الحبيب الذى تبرأ منها ، وفى طفلها الذى قطعته بيدها من قلبها وتركته لما كُتب عليه

إن هذا لا يعوِّضُه فى الطبيعة — إلا أن يكون لـكل رجل من أولئك الأنذال ثلاثُ أرواح ، فيُقتَـلَ ثلاثَ مرات ، واحدة بالشنق ، والثانية بالحرق ، والثالثة بالرَّجم بالحجارة

* * *

وكان اللقطاءُ قد تبَعثروا على الساحل جماعاتٍ وشتى ، فوقف أحدهم على طفل صغير يلعب بين يديه ، وأمه على كثَب منه ، وهى تتلهى بالمخرّم تتلوّى فيه أصابعُها

فنظر الطفل إلى اللقيط وأومأ إلى جماعته ثم قال : أأنتم جميعاً أولاد هاتين المراقبتين أم إحداها ؟

قال اللقيط : هما المراقبتان ؛ وأنت أفليست هذه التى معك مراقبة ؟

قال الطفل : ما معنى مراقبة ؟ هذه ماما ؟

قال الآخر : فما معنى ماما ؟ هذه مراقبة

قال الطفل : وكلكم أهل دار واحدة ؟

قال : نحن فى الملجأ ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دُوروا

فقال الطفل : وهل تبكى فى الملجأ إذا أردت شيئاً ليعطوك ؟ ثم تغضب إذا أعطوك لتزيدوك ، وهل يُسـكتونك بالقرش والحلوى والقُبلة على هذا الخد وعلى هذا الخد ؟ إن كان هذا فأنا أذهب معكم إلى الملجأ ، فان أبى قد ضربنى اليوم ، وقد أمر (ماما) أن لا تعطينى شيئاً إذا بكيت ، ولا تزيدنى إذا غضبت ، ولا . . . .

وهنا صاحت المراقبة الصغيرة : تعال يا رقم عشرة . . . .

فلوى اللقيط المسكينُ وجهَه ، وانصاع وأدبر

« ومشى الأطفال بوجوه يتيمة ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمة ، مستكينة ، معترفة أن لا حق لها فى شيء من هذا العالم إلا هذا الاحسان البخس القليل » . . . . ؟

(اسكندرية)

إلى (فلان) ببابل — تونس — إن كانت مقالات الانتحار قد صدتك عن الانتحار إلى حين فهل تريد جنوناً بعد عقل وكفراً بعد إيمان ؟ وكيف تريد الانتحار فى ليلة زفاف صاحبتك ، فتلق عليها الريبة وهى طاهرة ، وترميها فى الأفواه تمضغها مضغ المر ، وتنشىء لها بجنونك قصة فى الاثم والعار ليس منها حرف صحيح !

إن لم تتق الله فى نفسك فاتق الناس فى نفسك الأخرى ، وان لم تكن كريماً فلا تكن بهذا اللؤم مع التى أحببتها وأحبتك (الرافعى)

أقطاب الرواية المصرية

أبو عبد الله القضاعي

فقيه ومؤرخ وسياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عنيت منذ أعوام بدراسة طائفة من أقطاب الرواية التاريخية عن مصر الاسلامية ودرس آثارهم، ما دثر منها وما بقي؛ وكتبت بالفعل عدة فصول عن ابن عبد الحكم والكندي وابن زولاق استقصيت فيها حياتهم وآثارهم؛ ثم تناولت بعد ذلك عدة أخرى من مؤرخي مصر الاسلامية في عصور متأخرة، مثل النويري والمقريزي وابن تغرى بردى والسخاوي وابن إياس؛ وقصدي بذلك أن أترجم لمؤرخي مصر الاسلامية كلما سنحت الفرص، وأن أستوعب مصادر التاريخ المصري

والآن نستأنف هذا الدرس، ونخصص هذا الفصل لأستاذ من أساتذة الرواية المصرية، هو أبو عبد الله القضاعي، وهو مؤرخ وفقيه وسياسي معاً، عاش في فترة من أدق الفترات التي جازتها مصر الاسلامية، وشهد الدولة الفاطمية في ذروة القوة والعظمة، ثم شهدها تنحدر سراعاً إلى دور من الانحلال والتفكك يكاد يؤذن بذهابها، وشهد محنة من أشنع المحن التي عانتها مصر الاسلامية، وانتدب أيام المحنة ليكون سفيراً لأمته في طلب العون والغوث؛ وكتب عن مصر الاسلامية وعن حوادث عصره آثاراً هامة، لم تصل للأسف كلها الينا، ولكن ما انتهى الينا منها عن يد المؤرخين المتأخرين يدل على أهميتها وقيمتها

وهو القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي الشافعي المصري؛ ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري، في عصر الحاكم بأمر الله، ودرس الحديث، والفقه على مذهب الشافعي وبرع فيه، وبرز في التاريخ والأدب؛ وبدأ حياته العامة بتولي القضاء، ولبث يليه حيناً بالنيابة كلما خلا منصب قاضي القضاة بالوفاة أو العزل، ثم تولى التوقيع (أو العلامة) لأبي القاسم الجرجرائي المعروف بالأقطع[1] وزير الخليفة الظاهر لاعزاز الله ابن الحاكم بأمر الله، ثم وزير ولده المستنصر بالله من بعده. ولما توفي الوزير أبو القاسم (سنة ٤٣٦ هـ) تقلب القضاعي في عدة وظائف ومهام رسمية؛ وكان المستنصر بالله يقربه ويثق بحكمته وحسن تصريفه للامور؛ وتجول القضاعي ودرس في بغداد ومكة والشام؛ ووقف على أحوال الدول الاسلامية يومئذ، ومجرى السياسة في القصور المختلفة، وتبوأ في البلاط المصري ذروة الثقة والنفوذ. ثم جاء ظرف عهد فيه إلى القضاعي بمهمة سياسية دقيقة. ذلك أن الأزمات والفتن الداخلية التي توالت على مصر في عهد المستنصر بالله لبثت تتفاقم حتى انتهت بوقوع الغلاء والقحط؛ ثم كانت الطامة الكبرى بوقوع الوباء في سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٣ م)؛ وعانت مصر يومئذ آلاماً ومحناً مروعة. وتعرف هذه النكبة في تاريخ مصر الاسلامية « بالشدة العظمى ». وقد بدأت كالعادة بالغلاء وندرة الأقوات، وكان بين مصر والدولة البيزنطية يومئذ علائق حسنة، فأرسل المستنصر بالله في سنة ٤٤٦ هـ إلى امبراطور قسطنطينية، وهو يومئذ قسطنطين السابع، أن يمده بالغلال والمؤن؛ وكانت الدولة البيزنطية تواجه يومئذ خطر السلاجقة الذين أشرفوا على حدودها الشرقية وعاثوا في آسيا الصغرى؛ وكانت ترى أن تقوى صداقتها وتحالفها مع مصر التي كانت تخشى غزواتها من الجنوب ومن البحر؛ فاستجاب قسطنطين لدعوة المستنصر، وتم الاتفاق على أن ترسل المؤن من قسطنطينية إلى مصر، وأعدت بالفعل لتلك الغاية مقادير وافرة من الغلال تقدرها الرواية الاسلامية بأربعمائة ألف أردب[2] ولكن قسطنطين السابع توفي قبل تنفيذ الاتفاق، وخلفته على عرش قسطنطينية الامبراطورة تيودورا، واشترطت لارسال المؤن إلى مصر شروطاً أباها المستنصر، ومنها أن يمدها بالجند لمحاربة السلاجقة؛ فانقطعت المفاوضات بين الفريقين، وسير المستنصر جيوشه إلى الحدود الشمالية، ونشبت بين الفريقين معارك انتصر فيها المصريون بادئ ذي بدء. ولكن الأسطول البيزنطي غزا مياه الشأم، وهزم المصريين في عدة مواقع؛ فكف

(١) سمي كذلك لأنه كان أقطع اليدين، قطعا بأمر الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ

(٢) خطط المقريزي. بولاق. ج ١ ص ٣٣٥

المستنصر عن متابعة الحرب، وعاد إلى المهادنة والمفاوضة، وأرسل إلى بلاط قسطنطينية سفيراً مختاراً يسعى إلى عقد الصلح وتنظيم العلائق بين الفريقين

وكان ذلك السفير المصرى إلى بلاط القياصرة، هو أبو عبد الله القضاعى الذى يحبوه المستنصر بثقته وتقديره. فقصد القضاعى إلى بيزنطية عن طريق الشام؛ وتضع الرواية الاسلامية تاريخ هذه السفارة الشهيرة فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ويقع هذا التاريخ فى عصر الامبراطورة تيودورا التى جلست على العرش سنة ١٠٥٤ م وتوفيت فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م؛ وعلى هذا فقد كانت سفارة المستنصر إلى الامبراطورة تيودورا. وهذا ما يذكره ابن ميسر مؤرخ مصر بوضوح فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ إذ يقول: «وفيها سير المستنصر، فقبض على جميع ما فى كنيسة القمامة [١]؛ وسبب ذلك أن أبا عبدالله القضاعى كان قد توجه من مصر برسالة إلى القسطنطينية، فقدم إليها رسول طغرلبك يلتمس من ملكتها أن يصلى رسوله فى جامع قسطنطينية، فأذنت له فى ذلك؛ فدخل وصلى بجامعها، وخطب للخليفة القائم؛ فبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر فأخذ ما كان بقمامة؛ وكان هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم» [٢] بيد أن هنالك من جهة أخرى ما يدل على أن الجالس على عرش قسطنطينية وقت مقدم القضاعى إليها لم يكن الامبراطورة تيودورا، وأن الذى استقبل السفير المصرى هو خلف تيودورا الامبراطور ميخائيل السادس (ستراتيو تيكوس) الذى تولى عرش قسطنطينية فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م؛ فقد نقل المقريزى فى كتابه «المقفى» فى ترجمة القضاعى ما يأتى: «وقال أبو بكر محمد بن سامع الصنوبرى، سمعت القاضى أبا عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى يقول: لما دخلت على ملك الروم اليون، رسولاً من قبل المستنصر بالله، وأحضرت المائدة، فلما رفعت جعلت ألتقط الفتات؛ فأمر الفراش أن يحضر أخرى، ففعل؛ فقال لى الملك أصبت منه وإنك لم تشبع؛ فقلت

(١) هى كنيسة بيت المقدس التى تعرف عند النصارى «بالقبر المقدس» أو قبر المسيح

(٢) ابن ميسر فى «أخبار مصر» فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ — وخطط المقريزى ج ١ ص ٣٣٥

أنا والله مستكف؛ فقال لى لم أكلت الفتات؟ فقلت: بلغنى مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: من التقط ما سقط من المائدة برىء من الحمق والفقر؛ فأمر الخازن فى الحال باحضار ألف دينار وإعطائها؛ فقلت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستغنيت وبريت من الحمق» [١]؛ وذكر المقريزى فى الخطط أيضاً مايؤيد هذه الرواية [٢]. على أننا نستطيع أن نوفق بين الروايتين فنفترض أن القضاعى وصل إلى قسطنطينية فى أواخر عهد الأمبراطورة تيودورا؛ واستمر فى أداء مهمته بعد وفاتها لدى الأمبراطور ميخائيل السادس؛ ومكث حيناً بقسطنطينية؛ ومما يؤيد طول مكث القضاعى بعاصمة القياصرة أنه عنى هنالك بالدرس وجمع المواد التاريخية عن المدينة وخططها [٣]. أما مهمة السفير المصرى لدى البلاط البيزنطى فلم تحددها الرواية الاسلامية تحديداً واضحاً، ولكنا نستنتج مما قدمنا من الظروف والحوادث أنها كانت تقوم على السعى فى إقناع البلاط البيزنطى بالتحالف مع مصر ضد السلاجقة، وإعانة مصر بالأقوات والمؤن، تنفيذاً للعهود التى قطعها قسطنطين السابع للمستنصر وتوفى قبل الوفاء بها

ولكن القضاعى أخفق فى مهمته. ذلك أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة، لأنهم كانوا يومئذ أشد خطراً على الدولة الشرقية من مصر، وآثر القيصر أن يتعاقد مع رسول طغرلبك؛ وبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر، فرد المستنصر بالقبض على أحبار قمامة ومصادرة نفائسها، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية كرة أخرى؛ وعاد القضاعى إلى مصر على أثر هذا الفشل، ونستطيع أن نضع تاريخ عودته فى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أعنى بعد أن أنفق أكثر من عامين فى رحلته. ثم توفى القضاعى بعد ذلك ببضعة أعوام، فى ١٦ ذى القعدة سنة ٤٥٤

— ٢ —

كتب القضاعى عدة مصنفات فى الفقه والتاريخ منها كتاب

(١) نقل ترجمة القضاعى هذه من القطعة المخطوطة بمكتبة ليدن من كتاب «المقفى» المستشرق كينج فى مقدمته للجزء الذى نشره من كتاب «تسمية أمراء مصر» للكندى (ص ٢٢ و ٢٣)

(٢) راجع الخطط ج ١ ص ٣٣٥

(٣) راجع طبقات الشافعية للسبكى فى ترجمة القضاعى — ج ٣ ص ٦٣

« الشهاب » وكتاب « مناقب الامام الشافعي وأخباره » وكتاب « الانباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » وكتاب « المختار في ذكر الخطط والآثار » وكتاب « عيون المعارف » ، وقد دثر معظم هذه الآثار ، ولم يصلنا منها سوى كتاب « الشهاب » و « مسند الشهاب » أو (مسند الصحاب) وهما في الحديث ، وكلاهما بمكتبة الأسكوريال بمدريد[1] ؛ وانتهى الينا أيضاً ، كتاب « عيون المعارف » وهو على ما يصفه مؤلفه في مقدمته « موجز في ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء وولايات الملوك والخلفاء إلى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة من الهجرة » ، وتوجد من عيون المعارف نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية[2] ، ولكنا نرتاب في أنها مختصر لكتاب أكبر ربما كان هو المعروف « بتاريخ القضاعي » وهو الذي يقتبس منه كثير من المؤرخين المتأخرين ، والظاهر أيضاً أن « عيون المعارف » و « الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » هما اسمان لمؤلف واحد حسبما يبدو من مقدمة « عيون المعارف » المشار اليها

بيد أن أهم آثار القضاعي هو بلا ريب كتابه الشهير في الخطط وهو المسمى : « المختار في ذكر الخطط والآثار » ؛ ولم يصلنا هذا الأثر ، ولكن انتهت الينا منه على يد الكتاب والمؤرخين المتأخرين ، ولا سيما القلقشندي والمقريزي وابن تغري بردي والسيوطي شذور كثيرة تدل على قيمته وأهميته ؛ وقد كان لمؤلف القضاعي في الخطط أهمية خاصة لأنه آخر رواية كتبت عن خطط مصر والقاهرة قبل أن تغير معالمها فترة الشدة والخراب التي نزلت بمصر أيام المستنصر بالله ، وقبل أن تبعث بعد ذلك خلقاً جديداً في معظم معالمها وصروحها ، وهي حقيقة ينوه بها المقريزي في مقدمة « الخطط » إذ يذكر كتاب القضاعي « المختار » ضمن مصادره ثم يقول : « ومات (أي القضاعي) في سنة سبع وخمسين وأربعمائة[3] قبل سني الشدة فدثر أكثر ما ذكر ولم يبق إلا يلمع وموضع بلقع »[4] والظاهر مما نقل الينا من كتاب القضاعي أنه أثر ضخم تناول فيه خطط مصر وآثارها وتاريخها منذ الفتح الاسلامي بإفاضة ، وأضاف اليه ما انتهت اليه أحوال القاهرة المعزية حتى منتصف القرن الخامس والظاهر أيضاً أن كتاب « المختار » إنما هو المنعوت « بتاريخ القضاعي » لأن ما نقل الينا منه من الشذور يمتاز بإفاضة واضحة ، ولا وجود له في الوجيز المسمى « عيون المعارف »

وقد كان القضاعي ، كما يبدو من آثاره ، مؤرخاً دقيقاً ثقة ، يزن روايته ويمحصها ، وكانت روايته عن مصر الاسلامية ، ولا سيما عن حوادث عصره ، مستقى خصباً لكثير من المؤرخين المتأخرين ؛ ومازالت هذه الرواية ذائعة تتخذ مكانها بين مصادر التاريخ المصري حتى أواخر القرن التاسع حيث نرى السيوطي ينقل في حوادث فتح مصر عن كتاب « الخطط » للقضاعي مكتوباً بخطه[1] ، وفي ذلك ما يؤيد أيضاً أن الكتاب المنعوت « بتاريخ القضاعي » إنما هو كتاب المختار في الخطط والآثار ؛ ومن بواعث الأسف أن يحتجب عنا هذا الأثر الهام بين مصادر التاريخ المصري ، ولا سيما بين مصادر العصر الفاطمي الأول ، الذي احتجبت عنا معظم الآثار الخاصة به ، والتي غدت كالحلقة المفقودة في مصادر تاريخ مصر الاسلامية[2]

(النقل ممنوع) محمد عبد الله عنان

(١) راجع فهرس مخطوطات الأسكوريال للأستاذ ليفي بروفنسال (ج ٢) رقم ٧٣٦و٧٦٧ (كتاب الشهاب) ورقم ٢٠٧ (مسند الشهاب)
(٢) تحفظ هذه النسخة ضمن مجموعة مخطوطة رقم (١٧٧٩ تاريخ)
(٣) وهي رواية خاطئة ، لأن القضاعي توفي سنة ٤٥٤ هـ كما قدمنا
(٤) الخطط — ج ١ ص ٥

(١) حسن المحاضرة — ج ١ ص ٧٠
(٢) راجع في ترجمة القضاعي : ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٠ — السبكي (طبقات الشافعية) ج ٣ ص ٦٣ — والمقريزي في المقفى (مقدمة كتاب الولاة طبعة كنج ص ٢٢ و ٢٣) وفي الخطط ج ١ ص ٥ و ٣٠٥ — والسيوطي في حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ — وأخبار مصر لابن ميسر في حوادث سنتي ٤٤٧ و ٤٥٤

اللغـــة والألفاظ

الدعوة الى اختصارها لتسهيلها

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

اللغة تتبع الدولة ، وتسير فى ظلها ، ولا سبيل إلى انتشار لغة يُغلب أهلها على أمرهم ، وبعيدٌ أن تُصد عن الذيوع لغةٌ يتسع سلطان أبنائها وتنبسط رقعة ملكهم أو نفوذهم ، ولا عبرة فى هذا الأمر بما فى اللغة نفسها من سهولة أو عسر فى التحصيل ، والمعوّل على القوة والسلطان ، لا على أن اللغة قريبة المنال أو بعيدته ، ويسيرة المطلب أو عميقة المغاص ، وقد استطاعت اللغة الانجليزية أن تنتشر فى الأرض وأن تنفذ إلى مجاهلها ، وأن تزحزح الفرنسية وتحطها عن عرشها ، لأن سلطان هذه الدولة امتد شرقاً وغرباً ، وليست الانجليزية أسهل من الفرنسية أو العربية ، ولكن قوة أهلها أكبر ، ونشاطهم أعظم ؛ وهذه « الاسبرانتو » التى اخترعوها لتكون اللغة المشتركة بين الأمم ماذا كان مآلها ؟ يعرفها آحاد راقتهم الفكرة ، ولا يعبأ بها أحد فيما عدا هؤلاء النفر القليلين ، لأنه ليس وراءها ولا قدامها دولة لها سطوة ، وفى الهند لغات عدة لا رجاء لاحداها حتى فى أن تصبح لغة الهند كلها مادامت انجلترا تحكمها ، وفى مصر جالية أجنبية ليس أنشط منها ولا أكثر عدداً ، هى الجالية اليونانية ، ولكنه يندر أن يعنى مصرى بتعلم لغتها ، على حين نتعلم الانجليزية فى مدارسنا ونعدها لغتنا الثانية

ولا آخر لما يمكن أن نضربه من الأمثال ونسوقه من الشواهد ، فحسبنا هذا القدر ، فالذين يقولون إن المستر اوجدن قد تخير من اللغة الانجليزية خمسين وثمانمائة لفظ رآها كافية وافية بحاجات التعبير كلها ، وأن مثل هذا الاختصار أو الاختزال ميسور فى اللغة العربية ، وأنه يعين على نشر اللغة ويفضى إلى ذيوعها ، ويتيح لها أن تصبح « عالمية » — أقول إن الذين يذهبون هذا المذهب ، ويفكرون على هذا النحو ، يغلطون ويقلبون المسألة ، ذلك أن هذه الألفاظ الثمانمائة ليست اللغة الانجليزية ، ولا فيها لأبنائها وعلمائها وكتابها وساستها أى كفاية ، وإنما هى حسب الأجنبى الذى يريد أن يتصل بأهلها اتصال تجارة أو ما هو من هذا بسبيل ، وقد ابتكر المستر اوجدن هذه الوسيلة ليمكن للغته ويزيدها ذيوعاً ، لا لينشرها ، فقد تكفلت بنشرها الامبراطورية الطويلة العريضة من قبل أن يخلق المستر اوجدن ؛ ولو أنك عمدت إلى مثل ذلك فى لغة الفرس أو إحدى لغات البلقان الكثيرة ، لما أجدى ذلك شيئاً ، ولما جاوز بها هذا التسهيل صبغتها المحلية

وشىء آخر يغلط فيه أصحابنا الذين افتتنوا بالتسهيل ، ذلك أن السهولة مرجعها إلى العقل ، لا إلى الألفاظ ، فلو أنك قصرت اللغة على ثمانين لفظاً ، لا ثمانمائة ، لما اختلف الحال ، ولبقيت المسألة حيث كانت ، لأن المعول فى التعبير على الكاتب ؛ وليس على عدد الألفاظ ، وما من كاتب أو شاعر فى الدنيا يستعمل كل ما فى لغته من كلمات ، والسهولة مردها إلى أمور لا علاقة لها باللفظ فى ذاته ومن حيث هو ، منها أن يكون المعنى الذى يلتمس المرء العبارة عنه ، واضحاً فى الذهن ، ومنها أن يحسن الكاتب بعد ذلك انتقاء الألفاظ التى يؤدى بها المعانى ، وكثيراً ما يحدث أن يكون المعنى غائماً ، أو غامضاً ، أو غير واضح على العموم ، فى ذهن المرء ، فيحاول العبارة عنه قبل أن يدركه هو نفسه أو يحيط به ، فيجئ الكلام مضطرباً غير مفهوم ، لأنه لا سبيل إلى البيان إلا بعد أن يعرف المرء ماذا يريد أن يقول ، وقد يكون المرء عارفاً بما فى نفسه ؛ مدركاً المعانى الدائرة فيها ، ولكنه لا يعرف كيف يعبر عنها ويبرزها فى صورة واضحة ، فيسئ الأداء ؛ وإن كان قد أحسن التفكير ، ويقصر فى العبارة ؛ وإن لم يقصر فى فهم ما يرد على خاطره ويتمثل له من الخوالج . وفى وسعى أن أكتب لك سطوراً ليس فيها كلمة واحدة غير مألوفة ، أو لا يعرفها العامة والأميون ومع ذلك لا يستطيع أن يفهمها أحد ، وفى مقدورى كذلك أن أعبر عن أدق الاحساسات وأعمق المعانى وأعوصها تعبيراً يحمل القارئ على الظن بأن هذه كلها من البداءة ، لأن العبرة كما قلت ليست بالألفاظ ولا بكونها غريبة أو مألوفة ، وحوشية أو مأنوسة ، بل بالكاتب نفسه ، أى بوضوح المعنى الذى فى رأسه

أو غموضه ، وبقدرته على أدائه أو عجزه عن ذلك . وقد يتفق لك أن تحادث رجلاً عامياً لا يقرأ ولا يكتب ، فتسمع منه كلاماً كالتخليط أو الهذيان لا تستطيع أن تتبين منه مراده ، فهذا العامى الأمى لم يرجع إلى القريب من ألفاظ اللغة ولم يستعمل المهجور والدارس منها ، وإنما استعمل ألفاظاً يعرفها الأطفال والباعة والجهلة والمتعلمون ، ومع ذلك أعياك أن تفهم كلامه . فلو أن الألفاظ هي التي يرجع إليها أمر الغموض أو البيان ، والصعوبة أو السهولة ، لوجب أن تفهم عنه ، ولما كنت معذوراً إذا لم تفهم

فلا قيمة إذن لعدد الألفاظ التي في اللغة ، ولتكن ألفاً لا أكثر ، أو مائة ألف ، أو أقل من ذلك أو أكثر ، فلن يختلف الأمر في الحالين ، والأمر من حيث الأداء في اللغة مثله في التصوير ، ذلك أن الألوان التي يستعملها المصور قليلة العدد جداً ، وهي أداة المصورين جميعاً كما أن الألفاظ أداة الكتاب ، ولسنا نظن أن أحداً سيزعم أن قلة الألوان التي يستخدمها المصور جعلت التصوير أسهل ، وما من مصور إلا وهو عارف بالألوان وكيف يستعملها وكيف يزاوج بينها ، ومع ذلك يجيء واحد بالصورة الناطقة بل التي تكاد تصيح من قوة النطق ، ويجيء آخر بغير شيء ، ولا نحتاج أن نقول إن الألوان لا ذنب لها ، وإن المصور نفسه هو الذي لم يستطع أن يؤدي بها ما أراد أن يبرزه أو يثبته أو يدل عليه أو يرمز له ، وكذلك في الكتابة : لا ذنب للألفاظ ، فانها — وهي مفردة — لا تؤدي شيئاً ، ولا فرق بينها ، ولا فضل لواحدة على واحدة ، وإنما تصير كلاماً بعد أن يحدث فيها الكاتب نظماً أي بعد أن يؤلف بينها ، كذلك الألوان ليست هي الصورة ، وإنما تصبح صورة بعد المزج والمزاوجة والتأليف

وسواء أقلت الألفاظ المستعملة أم كثرت ، فسيظل هناك كتاب مشرقون واضحون يسهل ورود كلامهم ويحسن وقعه ، وآخرون غامضون أو معوصون ، يحطمون رؤوس القراء لأنهم يكتبون قبل أن يتبينوا ما في نفوسهم من الخواطر أو الاحساسات أو لأنهم لم يرزقوا القدرة على الأداء الحسن الواضح ، أو لأن في أسلوب تفكيرهم التواء ، أو لأن في طريقة تناولهم للموضوع عوجاً ، أو لغير ذلك من الأسباب الراجعة — في مرد أمرها — إلى المرء نفسه لا إلى الألفاظ . ولو كان الأمر رهناً باللفظ وحده لهان الخطب ، وما على الانسان حينئذ إلا أن يفتح معجماً — إذا اعترضه لفظ غريب

وعلى أن الواقع أن عدد الكلمات التي يستعملها الكتاب ، قليل جداً إذا قيس إلى ما في اللغة ، وهو لا يزيد على بضع مئات ، ومن هذه المئات القليلة يحدث كل كاتب أو شاعر آلافاً من الصور ، وبها يؤدي ما لا يستطيع أن يحسبه الحاسب من المعاني والخواطر والاحساسات ، كما يستطيع المصور — ببضعة ألوان — أن يرسم مئات من الصور لا تشبه واحدة منها أختها ، فلا معنى إذن لهذه الضجة التي يثيرها بعض إخواننا الكتاب حول اللغة ووجوب الاقتصار على المألوف من ألفاظها ، وهجر المهجور منها ، لأن هذا حاصل من تلقاء نفسه ، والكاتب الذي يؤثر الاغراب ويلجأ إلى الميت والدارس من الألفاظ ، يجني على نفسه بذلك ، وكثيراً ما يحدث أن يضطر أمثاله إلى تنكب هذا الطريق الأعوج والرجوع إلى النهج المستقيم

* * *

وبعد ، فانه لا يصح أن يقال إن لغة من اللغات عيبها كثرة ألفاظها ، فان الألفاظ تنشأ ، وتحيا ، وتموت ، على حسب الحاجة ، والناس لا يشتقونها أو ينحتونها ، أو يضعونها ، أو يستعيرونها من اللغات الأخرى ، للترف ، بل للضرورة في وقتها ، وللألفاظ حياتها كما للناس ، وهي — مثلهم — أجيال ، حتى معانيها تتطور على الأيام ، ويجري عليها من الحظوظ ما يجري على كل كائن حي ، وإنما الذي يصح أن يقال ، والذي يقبل من قائله ، هو أننا نسيء تعليم لغتنا ، ونجعلها بسوء طريقتنا في تعليمها وبتقصيرنا في حقها ، أعوص مطلباً مما هي في الحقيقة وأشق في التحصيل على أبنائها — فضلا عن الغرباء — من اللغات الأجنبية التي أحسن أهلها القيام على خدمتها وذللوا لطلابها ما فيها من صعوبات لا تخلو منها لغة

وما عدا ذلك خلط لا قيمة له

ابراهيم عبد القادر المازني

كيف ارتاد الشيخ رشيد مصر — رسالة تاريخية قيمة

من المرحوم السيد رشيد رضا

إلى صديقه الأستاذ المغربي

. . . . كان السيد رشيد رحمه الله أشار في مصنفاته الأخيرة إلى مبلغ الود الذي توثقت عراه بيننا في عهد طلبنا العلم في طرابلس الشام ، وقد استمرت هذه المودة زهاء عشرين سنة ، حتى سافر إلى مصر ، واتصل بالأستاذ الامام ، وأنشأ المنار . وكانت هذه الرحلة إلى مصر نتيجة الدراسة العلمية الحرة المشتركة بيننا خلال تلك المدة . ولا أدل على ذلك من هذه الرسالة المرسلة اليكم . وكان السيد رشيد كتبها إلى بعد أن وصل مصر سنة ١٨٩٨ م والرسالة المذكورة تدخل في نحو ٢٠٠ رسالة مثلها أرسلها إلى السيد رشيد خلال تسع سنوات (من ١٨٩٨ — ١٩٠٦) حتى جئت مصر وحررت في المؤيد

والرسائل المذكورة محفوظة لدى لايعوزها إلا حذف بعض (الخصوصيات) فتتمثل كتاباً يحتوى على مذكرات في مواضيع مختلفة هامة ، لما فيها من وصف الحالة الاجتماعية والأدبية في مصر خلال تسع سنوات

« المغربي »

الرسالة

أخي وسيدي :

سلام وتحية — وأشواق قلبية

لقد امتلأت المخيلة ولا سعة في الوقت لشرح ما ينبغي شرحه بل ولا لكتابته موجزاً بعبارة بسيطة . ولكن لابد من الأعماء إلى البعض بما يحتمله الوقت من البيان

(١) في بيروت : رغب إلىّ الوطني الفاضل عبد القادر أفندي القباني أن أحرر جريدة الثمرات ، وأعلّم في المدرسة التي أنشأها مع الشيخ أحمد عباس فانها تحتاج لمثلي ولم يجداه .

(٢) حدثني الموما إليه عن السيد محمد بيرم حديثاً طويلا يتضمن حالته في بيروت والآستانة ورجوعه إلى تونس ثم إقامته في مصر : أهمه أنه في بيروت جرى له مع قاضيها يومئذ مذاكرة علمية طويلة ما كان أحد غيرهما يفهم مايقولان . وبعد الانصراف سأل عبد القادر أفندي السيد بيرم عن القاضي فقال إنه أعلم من رأى ، ثم سأل القاضي عنه فقال انه زنديق فلم يسلم له باطناً . وأن جريدته (الاعلام) ذكرتهم بكلام القاضي بعد زمان ، لأنها كانت خادمة للانكليز ، وأنه رأى منها عدداً يتكلم فيه على الكمال ويقول فيه إن الكمال موجود عند الانكليز ، فيجب أن تأخذه عنهم بعد ما قدم مقدمه أنه يجب أخذ الكمال حيثما كان

(٣) حدثني أيضاً عن ترجمة فانديك ، وأن أطباء الافرنج لا يعترفون له بأنه طبيب ماهر ولا علماؤهم بأنه عالم وإنما كان مترجماً . وحزبه — ومنهم جماعة المقتطف — الذين تحزبوا له يوم أخرجته الجمعية الأمريكانية من المدرسة بناء على أنه ليس لديه من العلم ما يؤهله لها — يسمونه فيلسوفاً

(٤) اجتماعاتي مع الأمير شكيب وحديثه لي عن شؤونه في الآستانة لا سيما مع ابراهيم بك المويلحي وترددهما بين السيد جمال الدين (الأفغاني) وبين أبي الهدى أفندي وقضيت العجب مما ذكر لي من خبث المويلحي

(٥) اجتماعاتي مع وجوه الجبل (لبنان) متصرفه فمن دونه أمور شخصية ليس فيها فائدة تاريخية أو علمية إلا مسألة تولية نسيب بك جنبلاط قائمقامية صيدا بارادة سنية وذهابه بأمر الوالي إليها وما كان من الاحتفال الغريب من أهلها به وإرسال الوالي تلغرافا صبيحة ليلة وصوله بطلبه لبيروت وإقامة وكيل لصيدا مكانه بحيث لم ينم في صيدا إلا ليلة واحدة

(٦) بور سعيد والاسكندرية وصوفاً كل منهما ومبانيهما وشوارعهما لا سعة للكلام في ذلك

(٧) مدرسة جمعية العروة الوثقى بالاسكندرية وتعليمها ورئيسها عبد القادر أفندي سرى

(٨) اجتمعنا بالسيد عبد الفتاح النديم بداره في الاسكندرية وأهداني نسخة من الجزء الأول من سلافة النديم وأخبرني أن كتب أخيه (عبد الله نديم) لم تزل في الآستانة وهي عند الشيخ ظافر ، ولم يعطوها له بناء على صدور الأمر بفحصها ، وأن كتاب المسامير الذي ألفه بالطعن في أبي الهدى أفندي توجد نسخة منه عند أخ لجورجي كان يتردد بين السيدين الأفغاني والنديم في الآستانة وأخو جورجي الآن في مصر لكنه يطلب في مقابلة الكتاب مئات من الجنيهات

(٩) مولد السيد البدوى الرجبى فى طنطا وما يقام فى ذلك المسجد العظيم فى أيامه من الأذكار والنوبات واجتماع الألوف من النساء والرجال وطوافهم بقفص قبر السـيد كما يطاف بالكعبة ، وتقبيلهم له وتمسحهم به ، بل وتقبيل عتبة باب مقصورته

(١٠) بحيرة الاسكندرية ، الملاحة . أراضى مصر وفيها سباخ كثير ، أشجارها ، النيل ، عظمتها لاسيما فى كفر الزيات والمنصورة ودمياط ، الطرق الحديدية والترام الكهربائى — أمور عمومية

(١١) ذهبت إلى دمياط عن طريق المنصورة ومعنا الشيخ أبو النعى والشيخ أبو النصر (القاوقجيان) فنمنا بالمنصورة عند صديقنا الشيخ عبد الرزاق أفندى الرافعى القاضى ولم يكن ثمة ، لكن تلقانا ولده محمد أفندى بالترحاب وهو لطيف جداً ، وسهر عندنا المفتى والنائب وبعض أهل العلم ، ولما سمعوا حديث أخيكم أعجبوا به ، ودعانا المفتى للغداء عنده فى اليوم التالى فسافرنا إلى دمياط ولم نجب دعوته

(١٢) الجمعية الأدبية للخطابة فى المنصورة وكلام المقطم فيها

(١٣) اجتماعنا بالعلماء فى دمياط وكثرة سؤالهم لى عن المسائل الدينية والصوفية والفلسفية ، وبفضل الله لم أتوقف فى جواب . وقد تمنى الكثير منهم أن أبقى عندهم وبعضهم أن يكون معى

(١٤) فريد بك (وجدى) ابن وكيل محافظ دمياط ، شاب ذكى نبيه ، أبصر أهل دمياط بحالة الاسلام والوقت، وجهته مثلنا دينية ، بطالع الاحياء ، وله اعتناء بالفلسفة ، ألف كتاباً صغيراً سماه الفلسفة الحقة أهدانى نسخة منه ، وهو الآن يستعد لتأليف كتاب بالفرنسوية فى الديانة الاسلامية ويعرضه فى معرض باريز الآتى ، وهو منفرد بهذه الأفكار فى دمياط ، لأن دمياط بلدة اسلامية لا مداخلة للنصارى والافرنج فيها ، ومن ثم هى ضعيفة فى العمران ، قوية فى التمسك بالدين ، لانظير لها فى مدن مصر . زرت فريد بك وزارنى ، وقد أعجب بى كل الاعجاب ، وتمنى أن أكون معه دائما ، ونشط همتى على انشاء الجريدة (المنار) وسيكتب فيها

(١٥) فاتنى أن أذكر لكم عند ذكر الاسكندرية أننى اجتمعت هناك برجل يدعى السيد حسن أتين وهو رجل باقمة أصله بيروتى ودخل النصرانية وتعلم اللاهوت البرتستانتى ثم رجع للاسلام ، وهو متقن للغة الانكليزية ومتزوج بافرنجية ، وقد ساح فى البلاد كثيراً وأكثر إقامته فى عدن يتعاطى الأعمال التجارية ، وله مداخلة مع جميع طبقات الناس ، ويباشر كلا على مشربه خيراً أو شراً ، يجتمع باللورد كرومر ومختار باشا (الغازى) وبسائر الوزراء والكبراء وكتاب الجرائد ، وله صحبة مع أصحاب المقطم أثنوا عليه يوم جاء مصر ، وفى هذه المدة الأخيرة أقامه الشيخ الميرغنى الشهير خليفة على تلامذته فى شرق أفريقيا إلى رأس الرجاء ، ولا نعلم ما يكون من أمره ، وقد وعدنا بالمساعدة فى أمر الجريدة (المنار)

(١٦) مصر وما أدراك ما مصر !! وصلنا إليها قبيل العصر يوم السبت الماضى ، وأتينا توا للأزهر ؛ فتلقانا الشيخ اسماعيل (الحافظ) وغيره ، وشربنا الشاى فى غرفة الشيخ بدر الغزى — يظهر أنه بابىٌّ على مذهب شيخه — وفى ضحوة يوم الأحد ذهبت لزيارة المصلح العظيم الأستاذ الشيخ محمد عبده ومعى الشيخ اسماعيل والشيخ أبو النعى . قعدنا فى المندرة وأعطيت العبد بطاقة الزيارة فأوصلها إليه فى الحريم . فلم يلبث أن نزل وهى فى يده ولم يتركها مدة جلوسنا ، بل جعل يقلبها بيده ويتكلم

سألنا أولاً عن أستاذنا الشيخ حسين افندى (الجسر) ثم عن عزيز افندى سلطان ومحمد باشا المحمد ، ثم من طلبة العلم وشيوخهم وتعليمهم . ومما قلنا له إن الطلبة نحو مائتين والمستفيد المجتهد نحو اثنين

ثم أنشأ يتكلم عن حالة الأزهر والأمة . فعلمنا أن ما كنا نعتقده فيه من أنه موجه كل همه وسعيه للأزهر صحيح . ومن جملة كلامه أن سعادة هذه الأمة فى الأزهر ، وأن شقاءها من إهمال الأزهر . وإنه لا يرى نفسه سعيداً إلا إذا نجحت مساعيه فى إصلاح التعليم فيه . وإنه إذا رأى انتظامه قبل موته يموت قرير العين ويرى أنه ملك عظيم ، وحدثنا بأمر الامتحان فى الأزهر حديثاً كله تنديد بشيوخه وبتعليمهم ، بل قال إن الكثير من مدرسى الأزهر لا قابلية فيه الآن لأن يكون طالب علم : ومنهم من يصلح اليوم لأن يطلب العلم من طريقه

قال : كنت فى الامتحان أسأل أحد الطلبــة عن عبارة فيحل ألفاظها المفردة بارجاع ضمائرها وبيان متعلق ظروفها — هذا إن أحسن الجواب — فأسأله عن المراد بهذه العبارة فلا يحير جواباً . قال لأحدهم مرة : ما مراد المصنف من هذه العبارات — ثلاث مرات — وهو يعيد له الحل السابق . فقال له فى الأخير : إن مراده كذا ، فقل مثلما قلت ؟ فلم يحسن ذلك . وقال — بمناسبة ذم كتبهم — : سألت أحدهم فى المنطق فأجاب بما يبعد عن الصواب . قال : فقلت : من أين لك هذا الكلام ؟ فقال : من حاشية الصبان على السلم . قال : فلم أصدقه فنظرت فى الكتاب فرأيتها كما قال . فقلت للشيوخ كيف يعرف المنطق من هذا الكتاب ، وإن صاحب السلم لا يعرف المنطق وشارحه لا يعرف المنطق ومحشيه (الصبان) لا يعرف المنطق

قال : كان مراده من العام الماضى قلب هيئة الأزهر دفعة واحدة ، لكن قيل له إن الشيوخ يصعب عليهم ذلك ، ولابد من أخذهم بالتدريج

وقال : إن مداخلته بالحكومة إنما هى لأجل الأزهر لأنه لولا مركزه فى الحكومة لا يقبل له قول ولا يستطيع أن يعمل شيئاً فيه . وانه يعلم أن كثيراً من الشيوخ الذين ينقادون له الآن ساخطون عليه فى نفوسهم ، مع أنه سعى لعلماء الأزهر ببلغ خمسة آلاف جنيه بعضها من الحكومة وبعضها من الأوقاف ، وكانوا فى غاية الضيق

مما ينقمون عليــه أنه لا يطول أكمامه مثلهم ، وأنه يركب الحصان ويلبس الجزمة عند ركوبه كما فهمت من الشيخ اسماعيل فتأمل . وقال : لما ولاه الخديو السابق القضاء قال لناظر الحقانية : أنا خلقت لأن أكون معلماً لا لأن أكون حاكماً : أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا . فقل للخديو يجعلنى فى دار العلوم ، فلم يرض الخديو ، وقال : إن الحكومة أرادت الاصلاح بكذا وكذا

قال : وإن المصريين منهم من يعتمد على فرنسا وعلى . . . وعلى . . وكل هذا أوهام ، والصحيح أنه لا يضمن لنا الاستقلال والحياة للأمة إلا شىء واحد وهو التربية والتعليم الصحيح

ثم تكلم عن ضعفنا وقوة أوربا وقال : إن جميع ما حولنا — لاسيما حكامنا وعلماؤنا — يدل على اليأس ، ومع هذا فان لى أملاً كاملاً ، ويوجد رجل آخر فى مصر له نصف أمل سأسأله عنه(1) ، ثم جاء بكلام تاريخى عن حالة أوربا فى ضعفها وكيف قويت

سألته عن الكتاب المعهود(2) ، فقال : إنه لم يتمه وأنه لا بد منه ومن كتب أخرى . لكنه يحتاج إلى مساعد حاذق أمين : يفحص له عن النصوص ؛ فان جميع أرباب التآليف الكثيرة كالغزالى وغيره كانوا كذلك ، وإلا فان الوقت لا يتسع لتلك المؤلفات . وإنه لم يجد ذلك المساعد ولا بالمال . فقلت له : « ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » وربما يحصل بينى وبينه ارتباط عظيم . ولو جئت مصر غير متعلق(3) بغيرى ربما كان أولى ؛ فانى أجد قبولاً عظيما عند الكبراء والوجهاء من أهل العلم وأهل الدنيا : ماتكلمت أمام أحد إلا اعتبرنى اعتباراً زائداً . وقد تبين لى صحة قول من كان يقول لى : إنك ضائع فى بلادك ولو كان فى الوقت سعة لأخبرتك بما يسرك جداً من التفصيل

أخبرنا الأستاذ (الامام) أيضاً أنه كان شرع فى تأليف رسالة فى التوحيد منذ كان فى بيروت ، وانه سيتمها ويقرؤها درساً فى الأزهر فى أول السنة الآتية ، ويقرأ كتاب السيرة المعهود أيضاً إذ قراءته تدعو إلى اتمامه

وقال بمناسبة صعوبة التآليف المهمة فى العربية — إن بعض الكتب التاريخية وغيرها ربما لا يوجد فيه من العبارات المفيدة إلا عبارة واحدة أو اثنتان والباقى لا أهمية له . فاستخراج المفيد صعب ، ومثــل مثلاً فقال : إذا أردنا أن نكتب فى تاريخ علم الكلام فمن أين نستفيد : كيف كان هذا العلم فى عصر الصحابة ومن بعدهم ؟ وكيف اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى ؟ ومن أين جاءه ذلك الفكر فى المخالفة ؟ وهل كان غيره على رأيه ؟ وما الذى حمل أبا الحسن الأشعرى على القول بأن الوجود عين الموجود مثــلا ؟ وما غرضه من ذلك ؟ ومتى دخلت الفلســفة

(1) ثم أخبرنى فى رسالة أخرى أنه سأله عنه فقال هو الشيخ عبد الكريم سلمان صديقه

(2) كان يفكر رحمه الله فى تأليفه وهو فى السيرة النبوية كما يفهم من الآتى

(3) يشير إلى ارتباطه بصديقه له فى إنشاء المنار

ونحوها من الفنون فى هــذا العلم ؟ وما غرض العلماء من جعل الفلســفة تدخل على العقول مع عقائد الدين فى وقت واحد ؟ مسائل لم يشرحها أحد من علماء الاسلام . وقال : إن لعلماء الافرنج ومؤرخيهم كلاماً فى الدين الاسلامى لم يهتد له أحد من المسلمين ، وذكر لنا بعض تلك الكتب ومؤلفيها وكيفية أبحاثها

وقال : إن الأمم تتقدم الى الأمام ونحن نرى من سعادتنا فى تقدم الأمة أن ترجع للوراء تسعمائة سـنة . وأن تكون كتبنا وتعاليمنا كما كانت منذ تسعمائة سنة

وذكر فى معرض الانتقاد ابن عابدين وانتقـد عليه وقال : كان يمكن جعل الكتاب مجلدين بذكر ما يفيد والسكوت عما لا يفيد ، وذكر الاحياء وأنه ينبغى اختصاره ، وأنه رأى له مختصراً فى مجلدين فى المكتبة الخديوية مدحه كثيراً ، ولولا أنه محروم لسعى فى نشره ، وقد تعجبت لرضائه عنـه رضاءً تاماً ، ولعله لا يعجبه غيره كذلك

أما سيرة الأستاذ (الامام) فى مصر فكلٌ يعلم أن بيده زمام الأزهر ، وأنه هو الساعى فى انتظامه . وشيخ الاسلام فمن دونه تبع له ، وفى إنشاء الرواق الجـديد الذى أنشأه الخديو ويسمى بالرواق العباسى وهو حسن جداً ، وقد سعى بمبالغ من النقود ليوزع على الناجحين فى الامتحان من الطلبة ، وسيوزع قريباً فى احتفال يخطب هو فيه الخ

وأما من حيث المحكمة فقد سمعت أنه يأتى الساعة واحدة فيحلّ المشاكل ويفصل الدعاوى المتراكمة . وينقلون عنه حكايات لطيفة فى بيان الحيل وكشف الدسائس

ذكرت له : أن غرضى الأول تلقى الحكمة منـه فى أوقات الفراغ ؟ فسر لذلك وعهد إلىّ أن أجيءَ لبيته صباح يوم الجمعة (نهار غد) وأنه يأخذنى حيث يذهب

فاتنى أن أكتب لكم عند ذكر التربيـة أنه قال للسيد جمال الدين (الأفغانى) عند ما كانا فى فرنسا ، دعنا من السياسة ولنختر لنا مكانا مهملا لا اعتبار له فى نظر الحكام (أو ما معناه) ونعلم به ونربى بعض الأولاد ، فلا تمضى عشر سنين إلا ويبرع منهم جماعة على رأينا يقلدوننا فى ترك أوطانهم والهجرة فى نشر العلم والدين فنرسلهم للجهات ، وأن السيد (الأفغانى) أبى عليه هـذا وقال له : أنت مثبط فلم يكن مندوحة عن الانصياع له . وقال : لو أن السـيد ترك السياسة والتفت إلى التعليم لأصلح اصلاحاً عظيما

ذكرت له بمناسبة ما شاهدته من طواف الناس بقبر السيد البدوى ولثم أعتابه ، فحدثنا أن بعض الوجهاء كان عنده فى يوم مولد السيدة زينب وأنه قام ليحضر المولد . فسأله الأستاذ أين تذهب ؟ قال : لزيارة السيدة . فقال : لأى شيء خصصت زيارتها بهذا اليوم . قال : لأنه يوم المولد . فقال له : ما هو يوم المولد ؟ أنا لا أفهم معنى هذا اللفظ . هل هو عبارة عن يوم تقوم فيه من قبرها وتستقبل الزائرين ، وطفق يندد بهذا الأمر . فقال له الرجل إن كثيراً من العلماء والفضلاء يحضرون هـذه الموالد وتهيأ للقيام . فقال الأستاذ : أنا لا أعتبرك وأعتبر هؤلاء الذين تسميهم فضلاء إلا وثنيين ، لأن هذه الأعمال أعمال الوثنيين ؛ إن كل آيات الكتاب ونصوص السنة تذم هذا (أو ما معنى هذا) بل الفاتحة التى تصححون بها عبادتكم تنهاكم عن هذا وتعده خلاف العقيدة ، أنتم فى كل ركعة من الصلاة تقولون : « إياك نعبـد وإياك نستعين » فكيف تصدقون بهـذا وأنتم تطلبون الاعانة من هؤلاء الأموات ، أفعالكم متناقضة ، لأن قراءتكم الفاتحة لهم يدل على أنهـم محتاجون إليكم بهذا العمل الذى تهدونه لهم ليكون فى ثواب أعمالهم ثم تطلبون منهم الحوائج الخ

أهـل مصر عموماً لا سيما العلماء والوجهاء وأركان الحزب الوطنى يلعنون أبا فلان فى المجالس ويكفرونه ، ويقولون إنه هادم لأساس الدولة وإنه موقع الفتنة بين السلطان والخديو ، حيث أوهم الأول أن الثانى طالب للخلافة ويساعده على هـذا العمل توفيق البكرى الانكليزى المشرب

ما كنت أتخيل أنى أكتب هذا المقدار لضيق الوقت علىّ ولا أراك تؤاخذنى على قبح الخط وعدم انتظام الكلام ، واقرأه على الشيخ محمد (كامل) افنـدى الرافعى لأنى أود أن يطلع عليه ، وكنت عازماً أن أكتب له بمثل هذا فلم يساعدنى الوقت ؟

أخوكم

محمد رشيد رضا

المعنى والأســـلوب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب جدير بهذا الاسم ، لا يغني أحدهما إذا غاب الثاني ، ولا يرتفع الأديب إلى الذروة العليا في الأدب إلا باجتماعهما له

وقد كان كبار شعراء الانجليزية — كشكسبير وملتون ووردزورث وتنيسون — يجمعون إلى خصب شعورهم بصيرة باللغة بعيدة ومقدرة على التصرف بمفرداتها وتراكيبها تصرفاً يبرز معانيهم في أحسن صورة ، أما توماس هاردى فقد قصر به عن بلوغ ذروتهم — رغم خصوبة شاعريته — إعواز الرصانة في أسلوب شعره الذي هو أشبه بالنثر الجيد ، وقصوره عن أولئك الفحول في البصر باللغة ومعرفة كيفية التصرف في ألفاظها وتعابيرها ، ومن ثم ينزله النقاد الانجليز للمرتبة الثانية بين شعرائهم

وقد كان للمعنى — المعنى الصادق الجدير بالتعبير عنه — المنزلة الأولى عند كبار الأدباء الانجليز دائماً ، وكان الأسلوب يحل عندهم في المحل الثاني ، ويأتي لأداء المعنى لا ليحل محله أو يتحيفه ، ولم يشتد الولع بالأسلوب إلى حد الاغراق إلا في عهد قصير في القرن الثامن عشر ما يزال يُعدّ أحط أزمان الشعر الانجليزي ، وسرعان ما تحرر الأدب من قيوده ، وعاد كما كان تعبيراً صحيحاً عن الشعور الصادق في أسلوب طبيعي مستقيم

أما الأدب العربي فطغى الأسلوب على جانب كبير منه في مختلف عصوره وتحيف المعنى أو ألغاه : ففي الأدب العربي شعر ونثر كثيران يروع أسلوبُهما والمعنى فيهما ضئيل هزيل أو مصطنع كاذب غير معبر عن شعور صحيح أو تفكير سليم ، لأن الأديب قدّم براعة الأسلوب على التعبير عن حقيقة خواطره أو الاتيان بمعنى جديد يستحق عناء الانشاء

لقد كان العرب شعراء السليقة لا شك ، يُحِلُّون الشعر أو الأدب عامة مكانة عالية ويحتفون به ويطربون له ، حتى أوشك أن يكون فَنُّهم الجميل الوحيد ، ولكن من العجيب بل من المُؤْسِف أن الأدب العربي أحاطت به ظروف أزاغت نظرة كثير من أدبائه إلى الأدب أو وظيفته أو رسالته ، وقد أشرتُ في كلمات سابقة إلى بعض تلك الظروف ، ومنها دخول الأعاجم في اللسان العربي ، واعتزال الأدباء مجتمعهم واعتمادهم على صلات الكبراء ، وتغلُّب نزعة التقليد على نزعة التطور في الأدب العربي ، واعتزاله غيره من الآداب القديمة والمعاصرة له إلى حد كبير

زاغت نظرة كثير من الأدباء إلى الأدب فحسبوه صنعة لا فناً جميلاً ، وظنوا الغرض منه إظهار البراعة لا التعبير عن الشعور والفكر الصادقَيْن ، فجاءت آثارهم صناعة وبراعة خالية من المعاني الصادقة العالية والشعور العميق الصحيح : فالمقامات ورسائل الدواوين وأشعار النسيبِ الاستهلالي والمدح والهجاءِ الأجوفين والفخر الأجوف ، والمنثورُ والمنظومُ المرصعان بغرائب السجع والجناس والزّواج والمقابلة وهلم جرا ، كل هذه آثار أدبية قليلة الحظ من الصدق والحياة وعمق الفكرة ، وإن تكن لها مزية فهي مزية الأسلوب إن كان مُنشئها بارعاً

وهناك عدا ذلك آثار أدبيـة لم يقدّم أصحابها الأسلوب على المعنى ، ولكن المعنى فيها تافه بذاته غير ذي بال . فالأدب الرفيع هو ما تحدّث عن مشاعر النفس العميقة وتأثراتها بأسباب الحياة ، ومَشاهد الكون ، وتناول حياة الانسانية على الاطلاق ناظراً في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، معبراً عن آمالها وآلامها ، فأين من هذا خمريات أبي نواس ومقذعات جرير والفرزدق ومجونيات بشار ؟ لقد كان هؤلاء شعراء صادقي المعاني في كثير مما قالوا رائقي الديباجة ، ولكن شعرهم لتفاهة المواضيع التي سخروه فيها أو حطتها لا يرتفع إلى الطراز الأول من الشعر الانساني ، ولا تبقى له قيمة إذا جردته من أسلوبه الجزل

فاذا نظرت إلى كثير من منتجات أولئك الأدباء طالباً تلك النظرة الانسانية العامة ، وراغباً في شيء من الثقافة تضيفه إلى ما عندك ، ومنتظراً أن ترى نفسية الأديب وشخصيته مرتسمتين في آثاره لم تصب من ذلك شيئاً ، ولم تزدد علماً من دواوين وكتب كاملة بغير فائدة لغوية أو براعة لفظية أو تعبير جديد عن معنى متداول قديم

فاذا ألغيت من آداب اللغة كل الآثار التى لا تتعدى مزيتُها أسلوبَها ، والتى هزلت معانيها أو كذبت أو لم تزد على التمحل والمبالغة والتخريج والاغراب ، لم يبق لك إلا القليل من الأدب السامى الذى اجتمعت له مزايا المعنى القيم والموضوع المهم المفيد والأسلوب المحكم ، كأشعار الفحول فى الحكمة والوصف الطبيعى والتعبير الصادق عن الوجدان والنسيب الحقيق والحماسة وما إلى ذلك ، وتلك دون غيرها هى الجديرة أن تسمى آداباً

وهذه الآثار — وأحسن نماذجها حكمة المتنبى وأوصاف ابن الرومى وأبى تمام والبحترى ونظرات المعرى ووجدانيات الشريف الرضى ، ورسائل الجاحظ — هى خلاصة الثقافة التى يخرج بها الدارس من الأدب العربى ، وهذا المحصول الثقافى هو بلا شك دون المحصول الذى يظفر به مطالع الأدب الانجليزى ، الذى أوسع أقطابُه النفس الانسانية والحياة البشرية والمحاسن الطبيعية درساً ووصفاً ومناجاة

لقد أشرت إلى الظروف التى أحاطت بالأدب العربى فأدخلت فيه كثيراً من زيف الصنعة وكاذب القول وغلَّبَتْ الأسلوب فى كثير منه على المعنى ، ولعل طبيعة اللغة العربية قد ساعدت على هذا التغليب ، وأمدّت لمن انصرفوا بكلياتهم إلى الأسلوب وجمت حولهم المستجيدين : لما للغة العربية من بلاغة أصيلة ، وموسيقى نغمة ، وما لألفاظها وتراكيبها فى الآذان والنفوس من روعة وفتنة ، وما لأوزان الشعر العربى وقوافيه من رصانة واتساق بحيث يستطيع التمكن من كل هـذا أن يستولى على الألباب دون أن يبتدع فى المعنى ، كما يَصرِفك جمال اللحن الموسيقى عن تفاهة المعنى المتغنَّى به أحياناً

وقد زالت اليوم الظروف التى لابست الأدب العربى قديماً ، فهبطت بمعانى الكثير منه وأدخلت عليه الزيف والصنعة وزيغ النظرة إلى الغرض منه ، وما زالت للغة سمتها ومقدرتها وجمالها وموسيقاها ، فاذا اجتمع صِدقُ النظرة إلى الأدب ومطاوعةُ أداته وهى اللغة ، إذا قرنت المعانى المبتكرة السامية إلى اللغة الفنية المساعدة ، فما أجدر الأدب العربى أن يتبوأ منزلة عالية بين الآداب ، وما أقوى الأمل فى أن يفوق مستقبله كلَّ ماعرف ماضيه

فخرى أبو السعود

من تراثنا العلمى

٢ ـ كتاب فى البَيْزَرة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود ، فى علم ضائع ، لمؤلف مجهول

للأستاذ على الطنطاوى

« ابواب الكتاب »

المقـــدّمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى له فى كل لطيف من خلقه مُعجز يُتفكَّر فيه ، وخفىّ من صُنْعه يُتنبَّه به عليه ، ونِعَم تقتضى مواصلة حمده ، ومِنَنٌ تحثُّ على متابعة شكره . والذى ميّز كل نوع من حيوانٍ خلقه على حِدَته ، وأبانه بشكله وصورته ، وجعل له من الآلة ما يلائم طبعه ومُرَكّبه ، ويسّره للأمر الذى خلق له ، ويؤدّيه إلى مصلحته ، وقوام جسمه . وجعلنا من أشرف ذلك كلّه نوعاً ، وأعمّه معرفة ، وجمع فينا بالقُوّة ما فرّقه فى تلك الأصناف بالآلة ، فليس منها شىء مخصوص بحالٍ له فيها مصلحة إلا ونحن قادرون على مثلها ؛ كذوات الأوبار التى جعلت لها وقاءً وكسوة تلزمها ولا تعدمها ، فانا بفضل حيلة العقل نستعمل مثل ذلك إذا احتجنا إليه ، ونفارقه إذا استغنينا عنه ؛ وكذوات الحدّ والشوكة من صدف أو مخلب ، فان لنا مكان ذلك ما نستعمله من السيوف والرماح وسائر الأسلحة ؛ وكذوات الحافر والظلف فان لنا أمثال ذلك مما ننتعله ونتّقى أذى الأرض به . وجعل لنا خدماً وأعواناً ، وزينة وجمالاً ، وأكلاً وأقواتاً ؛ فبعض نمتطيه ، وبعض نقتنيه ، وبعض نتغذبه . وأحلّ لنا صيد البرّ والبحر والهواء ؛ نقتنص الوحش من كناسها ، ونحطّها من معاقلها ، ونستنزل الطير من الهواء ، ونستخرج الحوت من الماء . ولم يكلنا فى ذلك إلى مبلغ حيلتنا حتى عَضَدَنا عليه ، وسهّل السبيل إليه ، بأن خلق لنا من تلك الأنواع أشخاصاً أغراها بغيرها من سائر أجناسها ، ووصلها من آلة الخِلْقة وسلاح البُنية ،

وقبول التأديب والتضرية ، والانطباع على الأكف ، والاستجابة . فدلّنا على موضع الصنع فيها ، وموقع الانتفاع بها ، كالفهد والكلب وسائر الضوارى ، والبازى والشاهين وسائر الجوارح كلا يحويه من ذلك لنا كاسب وعلينا كادح ، وبمصلحتنا عائد ؛ نستوزعه جلّ جلاله الشكر على ما منحتناه من هذه الموهبة ، وفضلنا به من هذه التكرمة ، إلى ما تقصر عن تعداده ، ونعجز عن الاحاطة به من عوائد كرمه ، وفوائد قسمه ؛ ونرغب إليه جلّ جلاله فى العون على طاعته ، ومقابلة إحسانه باستحقاقه . وصلى الله على محمد نبيّه الصادق الأمين ، البشير النذير ، وعلى آله الطيبين الأخيار وسلم تسليما ، وعلى الأئمة من ولد الحسين بن على بن أبى طالب حتى تنتهى الى العزيز بالله أمير المؤمنين فتشمله ونسله الى يوم الدين

إن للصيد فوائد جمّة ، وملاذ ممتعة ، ومحاسن بينة ، وخصائص فى ظلف النفس[1] ونزاهتها وجلالة المكاسب وطيبها كثيرة ؛ فيه يستفاد النشاط والأريحيّة ، والمنافع الظاهرة والباطنة والمران والرياضة ، والخفوف والحركة ، وانبعاث الشهوة واتساع الخطوة ، وخفّة الركاب ، وأمن من الأوصاب ؛ مع ما فيه من الآداب البارعة ، والأمثال السائرة ، ومسائل الفقه الدقيقة ، والأخبار المأثورة ما نحن مجتهدون فى شرحه وتلخيصه ، وتفصيله وتبويبه فى هذا الكتاب المترجم بكتاب (البيزرة) على مبلغ حفظنا ، ومنتهى وسعنا ، وبحسب ما يحضرنا ، وينتظم لنا اتباعاً فيما لا يجوز الابتداع فيه ، وابتداعاً فيما أغفله من تقدمنا ممن يدعيه ، ونحن مقدمون ذكر الأبواب التى تشتمل على ذلك ليأتى كل باب منها فى معناه ، وبالله الحول والقوة ، ومنه عز وجل التوفيق والمعونة

(باب) من كانت له رغبة فى الصيد وعنده شيء من آلته من الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الأشراف

(باب) تمرين الخيل بالصيد والضراءة ، وجرأة الفارس على ركوبها باقتحام العقاب ، وتسنّم الهضاب ، والحدور والانصباب

(باب) ما قيل فى طرد كل صنف من وحش وطير

(باب) فضائل الصيد ، وأنه لا يكاد يحب الصيد ويؤثره إلا رجلان متباينان فى الحال ، متقاربان فى علوّ الهمة : اما ملك ذو ثروة ، أو زاهد ذو قناعة ، وكلاهما يرى اليه من طريق الهمة إما لما تداوله الملوك من الطلب وحب الغلبة الخ . . . والفقير الزاهد لظلف نفسه عن دنىء المكاسب ، ورغبتها الخ ، فمن هذه الطبقة من يقتات من صيده ما يكفيه ، ويتصدق بما يفضل عنه توقياً من العاملة والمبايعة ، ومنهم من يبيع ما فضل عن قوته ، ويعود بثمنه فى سائر مصلحته ، وكانت هذه حال الخليل بن أحمد الفرهودى مع فضله وأدبه وكمال علمه وآلاته الخ . . وكان جلّة الناس فى عصره يجتذبونه الخ . . . فأحد من كاتبه سليمان بن على الهاشمى ، فكتب الخليل بن أحمد إليه :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة ... وفى غنّى غير أنى لست ذا مال
شحّى بنفسى أنى لا أرى أحداً ... يموت هزلاً ولا يبقى على حال[1]

«قال» وقلما رأيت صائداً إلا تبينت فيه من سنيا القناعة الخ . .

وقال أرسطاطاليس : أول الصناعات الضرورية الصيد ، ثم البناء ثم الفلاحة . ولو أن رجلاً سقط إلى بلدة ليس بها أنيس ولا زرع لم تكن له همة إلا حفظ جسمه ونفسه بالغذاء الخ . . . ويغدو للصيد اثنان متفاوتان : صعلوك متصحق الأطمار . وملك جبار ، فينكفئ الصعلوك غانماً ، وينكفئ الملك غارماً ، وإنما يشتركان فى لذة الظفر الخ . . . وقال أبو العباس السفاح لأبى دلامة سل ! . . فقال : كلباً ، قال : ويلك وما تصنع بكلب ؟ قال : قلت سل ، والكلب حاجتى ، قال : هو لك ، قال : ودابة تكون للصيد ، قال : ودابة ! قال : وغلام يركبها ويتصيد عليها ، قال : وغلام ! قال : وجارية تصلح لنا صيدنا وتعالج طعامنا ، قال : وجارية ! قال أبو دلامة : كلب ودابة وغلام وجارية ! هؤلاء عيال ! لا بد من دار ! قال : ودار ! قال : ولا بد من غلة وضيعة لهؤلاء ، قال : قد أقطعناك مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة قال : ما الغامرة ؟ قال : التى لا نبات فيها ، قال : أنا أقطعك

---

(١) ظلف نفسه عن الشيء منعها من أن تفعله أو تأتيه أو كفها عنه

(١) والذى قاله ابن خلكان : أنه كان للخليل راتب على سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، وكان والى فارس والأهواز ؛ فكتب اليه يستدعى حضوره ، فكتب الخليل جوابه (هذين البيتين وبعدهما) :

الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ... ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

(فى قصة طويلة)

خمسمائة جريب فى فيافى بنى أسد ، قال : قد جعلنا لك المائتين عامرة يبق لك شيء ؟ قال : أقبل يدك ، قال : أما هــذه فدعها ! قال : ما منعت عيالى شيئاً أهون عليهم فقدا من هذا [١]

وقيل لبعض من كان مدمناً على الصـيد من حكماء الملوك الخ . . . وقيل للزاهد المشغوف بالصيد الخ . . . وهـذا كتاب كليلة ودمنة الخ . . . وكانت ملوك الأعاجم تجمع أصنافها (أى الحيوانات) ، وتدخل أصاغر أولادها عليها وتعرفها الخ . . .

وأشرف الغذاء الذى يحفظ به الأعضاء ، وليس شيء أشبه بها وأسرع استحالة إليها من اللحم ، وأفضل اللحمان ما استدعته الشهوة ، وتقبلته الطبيعة بقوة عليه ، ولا لحم أسرع انهضاماً وأخص بالشهوة موقعاً من لحم الصيد المطرود المكدود ، لأن ذلك ينضجه الخ . . .

وإن كان الحيوان غليظاً ، عكست هـذه الأسباب طبعه ، ونفت ضرره ، وقمعت كيموسه ؛ وربما أكل اللطيف الخفيف على تعنف وتكره ، فكان إلى أن يأخذ من الأعضاء ، أقرب من أن تأخذ منه الأعضاء

وتأول الرواة معنى امرئ القيس فى قوله :

رُبَّ رامٍ من بنى ثُعَلٍ مخرجٍ كَفَّيْه من سُتَرِهِ
فأتَتْه الوحشُ واردَةً فَتمتّى النَّزْعَ من يَسَرِه
فَرَماها فى فرائصِها من إزاء الحوض أو عُقُرِه
مطعمٌ للصيد ليسَ لهُ غيرها كسبٌ على كبَرِه

على المدح بإدمان الصيد ، وعن الطائر فيه ؛ واستثناؤه بقوله على كبره زائد عندهم فى المدح لوصفه أنه يتكلف من ذلك مع قدح السن وأخذها منه شيئاً لا يعجزه مع هذه الحال ، ولا يلحقه فيها ما يعرض للمسن من الفتور والكلال ؛ وبنو ثُعل بنو عمه لأنهم نفذ من طيء ، وكندة نفـذ من مرة ، ومرة أخو طيء فلم يرد غير المدح ؛ وهــذا الرأى عمرو الثعلى ، وكان من أرمى الناس الخ . . .

وفى أبيات امرئ القيس هـذه ، أدب من أدب الصيد ، والطائف حيله ، وهو قوله : فتمتى النزع من يسره ، وتمتى وتمطى واحد ، أبدلت التاء من الطاء ، وفى تمتى معنيان : أحدهما الاعتماد والتوسط من قولهم حصلته فى متى كى ، فتمتاه عمنى تعمد متاه (كذا) والآخر بمعنى إبدال التاء من الطاء يريد التمطى [١] وهو أن مريد الصيد بالرمى يتمطى بيساره نحو الأرض مرات حتى يؤنس الطريدة فتألف ذلك منه ولا تذعر له ، ثم حينئذ يستغرق نزعه ويمضى سهمه

ولا يزال امرؤ القيس فى كثير من شعره يفخر بالصيد ، وأكل لحمه ، كقوله الخ ...

ومن فضائل الصـيد ما فيه من التبرز على ركوب الخيل صعوداً ، وحدوراً ، وكراً ، وانكفاء ، وتعطفاً ، وانثناء الخ ..

وقال بعض الحكماء : قلما يعمش ناظر زهرة ، أو يزمن مريغ طريدة ، يعنى بذلك الخ ..

وليس يكبر الملك الرئيس العظيم الوقور ، إذا أثيرت الطريدة أن يستخف نفسه فى اراغتها ، ويستحفز فرسه فى أثرها الخ . . وحكى عن عظماء الأكاسرة الخ .. وعن الخلفاء الراشدين الخ ..

ومنها ما يسنح فيه من النشاط والأريحية الخ ... وربما قويت النفس حينئذ ، وانبسطت الحرارة الغريزية فعملت فى كوامن العلل . أخبرنى غير واحد ممن شاهد مثل ذلك : أنه رأى من غدا إلى الصـيد وهو يجد صداعاً مزمناً ، فظفر فعرض له رعاف حلّل ما كان فى رأسه ، وآخر كانت به سلعة يجبن عن بطها قويت عليها الطبيعة فانبطت ، وآخر كان فى بدنه جرح الخ ... وربما عكس ما يعرض له من ذلك ذميم حالاته ، فآلت إلى ضدها من الخيرية حتى يتشجع إن كان جباناً ، ويجود وإن كان بخيلاً ، ويتطلق وجهه وإن كان عبوساً

أخبرنى بعض الأدباء ، عن رجل من الشعراء ، قصد بعض الكبراء فتعذّر عليه ما أمله عنده ، وحال بينه وبينه الحجاب وكان آلفاً للصيد ، مغرى به ، فعمد الشاعر إلى رقاع لطاف ، فكتب فيها ما قاله من الشعر فى مديحه ، وصاد عدة من الظباء والأرانب والثعالب ، وشد تلك الرقاع فى أذناب بعضها وآذان بعض ، وراعى خروجه إلى الصيد ، فلما خرج كمن له فى مظانه

(١) قال الجاحظ : فانظر إلى حذقه بالمسألة ، ولطفه فيها ، ابتدأ بكلب فسهل القصة به ، وجعل يأتى بما يليه على ترتيب وفكاهة ، حتى نال ما لو سأله بديهة لما وصل اليه . « انظر أخبار أبى دلامة فى الجزء التاسع من الأغانى »

(١) قال فى اللسان والتاج . والتمتى فى نزع القوس من الصلب

ثم أطلقها فلما ظفر بها واستبد ورأى تلك الرقاع ووقف عليها
زاد فى طربه واستظرف الرج ستلطفه وتنبه على رعى ذمامه ،
وأمر بطلبه فأحضر ونال منه آ كثيراً
ومن شأن النفس أن تد عزّها ، وبعد من ادراكها
الخ ... وهذا شبيه بما تأوله ن خالد البرمكى فى توصية ولده
بتقديم العدات أمام الهبات ف ب لهم الخ ...
ولو أن محاول حرب ، ا ارع جيش ، ملك عدوه قبل
مكافحته إياه حتف أنفه ، أو ا. مشه من سوء تدبيره فانصرف ،
أو جاءه نازعاً طالباً لأمانه ، ن مقدار السرور بذلك كمقداره
لو نازله فقهره ، أو بارزه ف ، وهـذا بيّن فى الملاعب
بالشطرنج الخ . . .

ولو أن ملكا يهدى له ب يوم عدد كثير من أصناف
الوحش والطير لم يبلغ فر- ث جزءاً واحداً من اغتباطه
بقبرة ضئيلة يدأب فى صيده عكرشة هزيلة يظفر بها الخ ..

وقال بعض المحدثين :

لولا طراد الصـيد لم يك ل فتطارى لى بالوصـال قليلاً
هذا الشراب أخو الحياة وم من لذة حتى يصيب غليلاً

وأخذ هـذا المعنى مح وزير الحافظ الغسانى فكساه
لفظاً حسناً ، فى كلمة له يعت من تأخير هدية :

أخر ماعنـده لتط ولذة الصيد حين تطرده

وقال بعض الكتاب ى رئيساً من برّ بعث به اليه ،
(بعد أن مدحه بأبيات) :

لا أستلذ العيش لم أداب طلباً وسعياً فى الهواجر والغلس
وأرى حراماً أن يواتيني الفر حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاحبس نوالك عن أخيك موف فالليث ليس يسيغ إلا ماافترس

ومن فضل العلم بالصيد ، كاه لى أبى عن اسحاق بن ابراهيم السندى عن عبد الملك بن ص الهاشمى عن خالد بن برمك ؛ أنه كان نظر وهو مع صالح الهاء صاحب المصلى وغيره من رجال الدعوة ، وهو على سطح قرية نازل مع قحطبة حين فصلوا من خراسان وبينهم وبين عدوهم مسيرة أيام إلى أقاطيع ظباء مقبلة من البر حتى كادت تخالط العسكر ، فقال لقحطبة : ناد فى الناس بالاسراج والالجام وأخذ الأهبة ، فتشوف قحطبة فلم ير شيئاً يروعه ، فقال لخالد : ما هذا الرأى ؟ فقال : أما ترى الوحش قد أقبلت ، إن وراءها لجمعاً يكشفها ؛ فما تمالك الناس أن يتأهبوا حتى رأوا الطليعة ، ولولا علم خالد بالصيد لكان ذلك العسكر قد اصطلم

وعذل بعض أبناء الملوك فى الاستهتار بالصيد والشغف به الخ

ولما شهد أبو علقمة المرى عند سوار أو غيره من القضاة ؛ وقف فى قبول شهادته ، فقال له أبو علقمة : الخ

ومن فضائل الصيد أنه كان الملك من ملوك فارس الخ . . .

وكانت لبهرام شوبين حظية الخ . . .

وذكر الأصمعى عن الحارث بن مصرّف الخ . . .

ووقف بعض الملوك بصومعة حكيم من الرهبان فناداه فاستجاب له فقال له : ما اللذة ! فقال له : كبائر اللذات أربع ، فمن أيهن تسأل ؟ فقال : صفهن لى ، فقال : هل تصيدت قط ؟ قال : لا (وسأله عن خصال) قال : لا ، قال : فما بقى لك من اللذات ؟..

يتبع   على الطنطاوى

إلى الأستاذ البرازي

حول الفقه الاسلامي

والفقه الروماني

للأستاذ صالح بن على الحامد العلوى

قرأت ما سطره قلمكم أيها الأستاذ الفاضل فى العدد ١٠٨ من الرسالة الغراء رداً علىّ وعلى الأستاذ على الطنطاوى وما كدت أوغل فى أسطره حتى أرسلت زفرة حارة تتخللها آهة من أعماق صدرى لا لأنك خالفتنى فى رأيى أو لأنك أتيت لتدافع عن الفقه الرومانى أو غيره . ولكن لتلك الروح التى تبدو من خلال سطوره ، روح الافتتان بأروبا وما تقوله أروبا والاستماتة فى سبيل الدفاع عنها والفناء فيها وعدم الاستقلال أمام ما تمليه من الآراء والتقريرات ، ثم الوقوف مع الاسلام بروح ميتة تزعمونها روح العدل وإنصاف البحث العلمى كما سماها لكم الشيوخ المحنكون ، والحقيقة غير ذلك . وياليت الأمر وقف عند هذا الحد فقط ولكنه تمدى إلى الازراء بالعصبية الدينية واستهجان العاطفة القومية ودعوة الشباب المسلم إلى هذا التقليد الأعمى الذى تسمونه الانصاف لأروبا ، وإلى الاقتداء بأئمة أروبا الأبرار الذين لا ينطقون عندكم عن الهوى بل عن علم وبحث وانصاف . هذه النزعة الغالية جعلتنى أرسل الآهة تلو الآهة على الشباب المسلم المتعلم منا معاشر العرب ممن يفدون على أروبا القوية المادية بقلوب فارغة وطباع فطيرة غير مجهزين من سلاح الاسلام إلا بوراثة اسمه ، يأتون ليكرعوا من غمار موارد أوروبا ويتشبعوا من علومها وثقافتها . فتتفحمهم من فتونها وحبها وتملأ صدورهم الفارغة مما تشاء هى لا ما يشاء الآباء . فيعودون وقد تشبعوا بثقافة أروبا وأخلاق أروبا والتعصب لأروبا أيضاً . وقد يكونون مزودين من كل شىء إلا من تعاليم الاسلام والحماس للاسلام ، وماذا يصنعون أمام أروبا وقد أتاهم هواها قبل أن يعرفوا الهوى ؟ إن أمثال هؤلاء لا يعدّون عندى إلا جرائم لآبائهم تنكروا بتكرر أنفاسهم

ووالله إننا لا ننكر ذات أروبا ولا علوم أروبا ولا ثقافة أروبا ولكنا ننكر هذه النزعة الغالية ، وهذه الثقافة البيناوية الصورية التى يتمشدق بها بعض الشبان المتطرفين . أما علومها وأما ثقافتها الجدية وصناعاتها النافعة فإننا فى مقدمة من يحبذها ويدعو اليها ولكن بعد غرس العصبية الدينية والعاطفة القومية فى نفوس الناشئة حذراً من هذا الفناء وهذا الادّغام الشين

ولست أدعى انطباق كل ما قلت عليك يا حضرة مناظرى الأديب ؛ كلا ! ولكنى أقوله بمناسبة ما رأيته ملموساً فى مقالك من نزعة الافتتان بأروبا وتقليدها ودفاعك عنها دفاع المستميت ، ثم تظلمك لعلمائها بعبارات جعلتنى أتخيل أننا صرنا فى عصر صار فيه الشرق رب الصولة والدولة وكان الغرب على عكس ذلك ، وكأنك قمت محتسباً تستعطف العالم لانصاف الغرب الضعيف المظلوم من بنى الشرق وعنت الشباب

وماذا صنعنا سوى أننا أنكرنا أن يكون الفقه الاسلامى متأثراً بالقوانين الرومانية ، وأنه إذا كان بين الفقهين تشابه فليس الحكم على أن الفقه الاسلامى هو المتأثر بأولى من العكس ، فأدلة الفقه الاسلامى صريحة والمستنبطون منها وهم مؤسسو المذاهب لا يجوز أن يقال بتأثرهم بالقانون الرومانى إذ لم يتصلوا بالرومان ولم يعرفوا لغتهم ونشأوا ودرجوا فى محيط إسلامى وفى ثقافة اسلامية محضة ، ومن خطل الرأى وعدم الانصاف أن يقال لمجرد وجود التشابه بين الفقهين إن الفقه الاسلامى هو المتأثر أو الآخذ مع فقد الدليل وتوفر القرائن على ضده ، ولم لا يقول زاعمو التأثر إن هذا التشابه وليد المصادفة ؛ إذ أن الدين الاسلامى أتى فى أحكامه بما يوافق العقل السليم من العدل والانصاف ، وهو دين حسَّن الحسن وقبَّح القبيح ، فما أمرنا بأمر فقال العقل السليم ليته نهى عنه ، ولا نهى عن أمر فقال العقل السليم ليته أمر به ، هكذا وصفه بعض الصحابة ، وعن هذا نشأ الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة فى مسئلة الوجوب بالعقل أو بالشرع والقول بالتحسين والتقبيح العقليين ؛ فلا يبعد أن تكون العقول التى عنيت بوضع القوانين لتحديد الحقوق وفصل الخصومات ، قد صادفت بعض ما قرره الفقه الاسلامى الملازم لمطابقة العقل فى قضائه وأحكامه ، وقد نقلنا حكاية اختفاء القوانين الرومانية وزعم ظهورها بعد ، وأن تاريخ ظهورها بزعمهم كان بعد تأسيس المذاهب وانصرام عصر

أعتها ومن المستحيل تأثرهم بشيء لما يظهر بعدُ من اختفائه ، وإذا كنا رجحنا أن القوانين الرومانية هي الآخذة عن الفقه الاسلامي فلم نقل ذلك اعتباطاً ولكن ببراهين نستقدها كافية في ذلك ، وأخذُ أوربا عن علوم العرب غير مجهول كما تكرره المجلات العلمية عند كل مناسبة

القول باختفاء القوانين الرومانية ثم ظهورها

أما القول بأن القوانين الرومانيـة قد اختفت ودرست ثم ظهرت فجأة ؛ فلسنا نحن منتحليه وإنما قاله علماء غربيون ، فقد حكى جيبون أن هذه القوانين — أي قوانين الاثنتي عشرة لوحة — بقيت الى زمان جوستنيان ثم فقدت ، ونقل العلامة موسهيم الجرمني في تاريخ الكنيسة في حوادث القرن الثاني عشر في العدد ٥ من الفصل الأول من القسم الثاني من الكتاب الثالث : إن الملك لوثاريوس اكتشف في افتتاح أملفي سنة ١١٣٧ نسخة مجموع الشريعة الشهيرة التي كانت مجهولة على أجيال كثيرة ، فأتى بها الملك الآن الى مدينة بيزا ... الخ

ولا شك أن القوانين المعمول بها قبل ظهور هذه القوانين كانت مغايرة لها أيّ مغايرة كما سيأتي . وأول من ابتدع هذه الحكاية أي حكاية اختفائها واكتشافها هو لود فيكوس سنة ١٥٠١ م ، ثم راجت هذه الحكاية وانتشرت في القرون الوسطى الى الآن (انظر جيبون جزء ٤ صفحة ٥٥٥) ، وقال اللورد ماكنزي في كتابه على القانون الروماني صحيفة ٦ إن هذا القانون (يعني قانون الاثنتي عشرة لوحة) لم يصل الى أيدينا وغاية معلوماتنا فيه تستند على بعض أوراق مفرقة وبعض ملاحظات تاريخية مما فقدت آثاره ... الخ

القوانين الرومانية القديمة

أما القوانين الرومانية القديمة ؛ فهذه نماذج منها ذكرها الأستاذ عبد الجليل سعد قال : إن فقه الرومانيين الأولين كان أشبه شيء بالفصول المضحكة (انظر تاريخ الدولة الرومانية للعلامة جيبون جزء ٤ صفحة ٥٢٧) وذلك لأن جميع معاملاتهم كانت لا تخلو من الحركات والطقوس ، وكانوا لا يفرقون بين المعاملات والأحوال الشخصية ، بل كانت الصيغة المستعملة واحدة للجميع وهي ما يسمونه : (مانسيباشيو) فاذا أراد أي إنسان إجراء أي عمل قانوني سواء كان زواجاً أو بيعاً أو وصية أو غيره ، فعليه أن يحضر القباني ومعه الميزان ، وعليه أن يحضر الشهود الذين يشترط ألا يقل عددهم عن خمسة ، وعندئذ يبتدئون في عمل الطقوس المفروضة ؛ فيتلون بعض العبارات ويصنعون بعض الاشارات أو الحركات ، ثم يمسك المشتري أو الموصى اليه أو الموهوب له قطعة من النحاس ويضرب بها في كفة الميزان ليقلد الطريقة القديمة المتبعة في وزن البدل ، ثم بعد ذلك يتفوه الطرف الثاني بجُمَلٍ معلومة تدل على أنه قابل ومقر على هذا العمل (انظر ماين على القوانين القديمة صحيفة ٢٩٥ و ٣٠٥) فلم يكن إذن لدى الرومانيين القدماء عقود مختلفة تتوقف على النية ، بل كان من الضروري إجراء حركات معيّنة ، فكان الخصمان في الدعوى يتكالبان أمام القاضي ، وكان المتظلم يمسك بخصمه من قفاه ويتضرع الى إخوانه أن يساعدوه ، وكان الموصى اليه لا بد وأن يخلع لباسه ويقفز ويرقص ! وكان الأب هو الحاكم والقاضي في أسرته . وجميع أفرادها داخلون في ملكه يتصرف فيهم كما يتصرف الانسان في ملكه المنقول ، فله بيعهم كالعبيد سواء كانوا نساء أو رجالاً (راجع جيبون صحيفة ٥٦٣ جزء ٤) ولم يكن حق الملكية معروفاً لديهم على النسق الذي نعرفه ، بل كان الملوك يقطعون الاقطاعات للضباط والعساكر ، وهؤلاء يجبون الخراج من أصحابها المزارعين (ماين صحيفة ٢٦٥) ، ومن أراد الزواج يذهب ويشتري زوجته من والدها على الصورة المتقدمة مع إحضار القباني والميزان والشهود ، ثم قال : أما قانون الاثنتي عشرة لوحة فلم يزل أصلا ثابتاً ، ثم قال : ومن يطلع على أحكام هذا القانون يجد بعضها في غاية الشدة والقسوة كمعاملة المدين المفلس ، فانه كان يمهل ثلاثين يوماً وهو مسجون مكبل بالحديد والقيود والسلاسل التي لا يقل وزنها عن خمسة عشر رطلا ثم يعرض ثلاث مرات في السوق العمومي لاستجداء الأصحاب والأقارب ، وبعد انتهاء الثلاثين يوماً إما أن يعدم أو يصير عبداً للدائن يبيعه ويقضي دينه ، وإذا كان له جملة دائنين حق لهم أن يُجزّئوا لحمه قطعاً وينتقم كل منهم لنفسه بتقسيم بدنه هذا التقسيم الشنيع (انظر جيبون جزء ٤ صحيفة ٥٨٩ الى ٦٠٠) وكانت أحكام الرومان الجنائية قاسية للغاية ، فكانوا يلقون المذنب لافتراس

الوحوش الكاسرة فى محل يسمى : الأنفتياتر ... الخ ما ذكره

هذا بعض ما قاله العلماء الغربيون عن الفقه الرومانى القديم ومخالفته للجديد ، وهو كاف ـ بلا شك ـ فى خرق الاجماع الذى ادعيته عندهم يا حضرة الأستاذ على استمرار القانون المعهود بينهم من ذلك العهد ، ولا نناقشك الآن فى أصل احتجاجك بسكوت الأوروبيين عن جرح القانون الرومانى المعهود لديكم أو تلفيقه إلا بهذا ، ولا نعيد لك ما قاله العلامة ابن تيمية ، ولا أبو الوليد ابن خيره ؛ فقد يكون كل كلام لا يروج لديكم إلا إذا كان عليه الطابع الأوربى ، فذلك عند البعض قضاء لا يرد قائله ، غير أننا سنمهلكم وننتظر حتى يأتى يوم تصيح بكم فيه أوربا الحبيبة : أن أصلحوا معلوماتكم ، وغيروا مذكراتكم ؛ فعند ذلك تخفون اصواتها قائلين : غطى هواك وما ألقى على بصرى !

سقوط قياس القانون الرومانى بالقرآن

قلت أيها الأستاذ فى الصفحة ١٢١٦ من الرسالة : (إن البينات تختلف بحسب الأمور المراد اثباتها ، فاذا كانت هذه الأمور غير مدونة بنفسها كالحديث الشريف فلا بد حينئذ من ذكر الأسانيد وسرد الروايات ، أما إذا كان المراد اثباته مدوناً بنفسه لم يعد مجال حينئذ إلى الأخذ بطريق الرواية والاسناد ، وصار لابد من التدليل عليه بنسخه الأصلية ، التى وضع بها ، أو بالنسخة التى أخذت من هذه ، فالقرآن الكريم مثلاً لما كان قد دون فى العهد الذى نزل فيه وجمعت صحفه المدونة فى عهد الخليفة الأول ، وانتقلت الينا نسخ مخطوطة منه كتبت فى عهد قريب من عهد نزوله ، لم يلجأ إلى الرواية لاثبات صحته ؛ وكذلك أيضاً شأن الشرع الرومانى الخ) وقلت فى صفحة ١٢١٥ : (ائن جاز فى نظرنا لأحد من النصارى أو اليهود المتعصبين أن يجزم بأن القرآن الذى بأيدينا هو غير القرآن الذى أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه مختلق من جماعة من علماء المسلمين الحديثين ، مكتفياً للتدليل على ذلك بأن يقول لنا : هاتوا دليلكم ، فقد حق كذلك لصاحبى المقالين المتحمسين أن يزعما ما زعماه)

فما أغناك أيها الأستاذ عن قياس القانون الرومانى بالقرآن الكريم ؛ وزعمك أن الاستناد فى اثبات كونه هو المنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما هى نسخه المخطوطة القديمة الموجودة ، لا روايته الصحيحة ، فحينئذ هو عندك فى نسبته إلى الشارع (ص) كنسبة القانون الرومانى المعروف إلى جوستنيان ؛ وهذا تقرير لا أعلم مسلماً قاله قبلك أيها الأستاذ الفاضل ، فالعمدة فى اثبات القرآن الكريم ليست نسخه المخطوطة فحسب ، بل المقرر حتى عند تلاميذ المدارس الابتدائية أن العمدة فى اثبات القرآن الكريم إنما هو التواتر ، والتواتر أقوى الأسانيد ، وقد تلقاه الجيل عن الجيل ؛ ورواه الخلف عن السلف بالتواتر فى كل عصر من عهد نزوله إلى اليوم ، ولم يقل أحد بأن العمدة فى ثبات القرآن إنما هى نسخه المخطوطة القديمة فقط . وكيف يقاس القانون الرومانى الذى لايعلمه إلا الأفراد من المتعلمين بكتاب يتلى فى كل مسجد وزاوية ، بل فى كل بيت فى بلاد الاسلام ، وفرض على كل فرد من المسلمين تلاوة شىء منه فى كل يوم خمس مرات ، ذلك بعد أن حفظه الجم الغفير عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى عصره ، حتى ثبت أنه قتل فى يوم اليمامة فقط سبعون قارئاً ، ورونه الألوف عن الألوف من ذلك العصر ، وهكذا دواليك إلى اليوم ، ولا يبلغ الطفل المسلم سن التمييز إلا ويوجه لتعلم القرآن الكريم قبل دراسته لأى شىء كان

أين يكون قانون لايعرفه إلا الأفراد من المتصدين لدراسة الحقوق من كتاب يدرسه العابد فى محرابه ، والتاجر فى سوقه ، والزارع فى ريفه ؛ ويشترك فى تلاوته الشريف والوضيع ، والذكر والأنثى من الطفل الصغير إلى الشيخ الكبير ، حتى أننا لو فرضنا أن المدنية العصرية قد عمت العالم وتخللت أوساطه الرفيعة والنحطة ، وأريد أن يتلى القرآن بالمذياع على كل ذى مصحف لا نفتحت عند سماعه مائة مليون مصحف فى شرق الأرض وغربها ، ولو أخطأ القارىء فى قاتحته لرد عليه عند ذلك فوق ثلثمائة مليون صوت من أنحاء الدنيا ! . . . .

هل يقاس هذا إلى ذاك إلا إذا قيست الذبالة بالغزالة ؟

وقلت : (أما التناقضات التى وقع فيها ... صالح العلوى ... فأشير منها إلى ما جاء فى السطر الثانى من الجانب الأول من الصفحة الـ ٧٨١ من الرسالة ، فبعد أن قال : (إن الفقه الرومانى اختفى ثم اكتشف ولم يظهر ولم يعمل به إلا فى القرن الثانى عشر وأنه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم قبل القرن الحادى

عشر) وقال فى السطر ٢٢ من الصفحة نفسها (إن دعوى اختفائه أكذوبة) ثم ما لبث أن استند إلى قول العلامة سافنيه: (إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع) الخ

ومحصل ما نسبته إلىّ أيها الأستاذ أنى أؤيد دعوى اختفاء القوانين ثم اكتشافها ثم أدعى أنها لم تختف بل بقيت معمولاً بها وأستند لذلك بقول سافنيه:

هكذا شاء قلمك يا أستاذ الحقوق أن يصنع، وهكذا أراد أن يمسخ الحق ليصوره باطلاً فيقطع من عباراتى ما شاء ويصل، ولا يتورع من أن يبلع بعض الكلمات بلعاً؛ ذلك ليبنى مما قلته تناقضاً

وانظروا أيها القراء ثم احكموا، أما ما قلته فى السطر الثانى من الصفحة ٧٨١؛ فهذا نصه بالحرف: (ثم إن الفقه الرومانى — على زعم أنه اختفى ثم اكتشف — لم يظهر ولم يعمل به إلا فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد؛ أما قبل الحادى عشر فانه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم، ولا شك أن الفقه الاسلامى قد قرر وصنف الخ) فقلت هنا على زعم أنه اكتشف الخ، لأبين أن تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى غير معقول حتى على زعم أن الفقه الرومانى الموجود هو القديم نفسه وأنه اختفى ثم اكتشف لأنه على هذا الزعم لم يظهر بزعمهم إلا بعد الحادى عشر وقد وُجد فقهاء الاسلام وألفوا وصنفوا قبل ذلك بزمن طويل وهناك قلتُ: وما قيمة زعم تأثر الفقهاء بالقوانين الرومانية إذا كان مصنفو الفقهاء وأئمتهم ومنهم: مالك والشافعى وأحمد وأبو حنيفة والثورى والأوزاعى الخ. درسوا وألفوا وصنفوا قبل أن توجد أو تعرف القوانين الرومانية للرومان أنفسهم. أليست هذه مهزلة مضحكة؟

فهل سوغ لك هذا أيها الأستاذ أن تنسب إلىّ من هنا أنني أقول باختفاء الفقه الرومانى ثم ظهوره؟

وقلت إنى قلت فى السطر ٢٢ من الصفحة نفسها (إن دعوى اختفائه أكذوبة) وجعلتها بين قوسين، وهذا يفهم أنها بالحرف، وأصلها بالنص: (إن دعوى اختفاء الفقه الرومانى ثم ظهوره بعد ستة قرون أكذوبة لا مرية فيها، وقد كان الفقه الرومانى معروفاً وهو أشبه شىء بالفصول المضحكة)، ولكن قلمك يا أستاذ الحقوق أدى منها هذه الكلمات الثلاث أو الأربع وذهبت الكلمات الباقية ضحية فى سبيل خلق التناقض الموهوم!

وأما العبارة الأخيرة فلم تذكر سطرها ولا جانبها، وقد يكون ذلك لكونها تبعد عما قبلها بأسطر والغرض إيهام القراء وجود التناقض فى عبارة متصلة وقد ذكرتها أعني العبارة الأخيرة بنصها ولك الشكر، غير إنك اخترلتها اختزالاً كى تجعلنى أمام القراء ملزماً بها بزعمك بالاعتراف بأن الفقه الرومانى الحديث هو القديم، والعبارة (ثم إن حكاية اختفائها وبروزها فى القرن الحادى عشر لم يقل بها غير هولود فيكوس سنة ١٥٠١ م ثم راجت. أنظر جيبون ٤ صفحة ٥٥٥، وقد اعتبرها بعض العلماء إذ ذاك غير حقيقة فقد قال القانونى الشهير سافنيه إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع. اهـ، ويعنى بها القوانين القديمة المقدم ذكرها) هذه عبارتى حرفياً، وبهذا وذاك ينكشف للقارىء الكريم أنى لم أقل إن الفقه الرومانى اختفى ثم اكتشف إلا وأنا مبين بأن ذلك زعمٌ، وقلت إن للرومان قانوناً معروفاً كله همجية وقسوة، وهو الذى لم يختف وهو المعنىّ بقولة سافنيه، وكلامى صريح فى ذلك وبهذا يتضح ألا تناقض وإن كان قائماً هو فى مخيلة الكاتب الأديب!

باحبذا العصبية والعاطفة القومية!

وتقول أيها الأستاذ: فأولى بشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين ثم تقول: (إن فى دعاوام مايضر بالاسلام ويسيء بثقافته الظنون)

فيا عجباً لك أيها الأستاذ أدفاعنا عن الاسلام بالبرهان والمنطق يضر بالاسلام وتعصبنا لديننا يسيء بثقافتنا الظنون؟ هكذا تعصبنا نحن فقط يضرّ بديننا؟ لماذا يضر التعصب (على فرض وجوده) بنا وبديننا ولم يضر بأوربا ولا بدينها وقد ضربت فيه الرقم القياسى وبلغت النهاية؟ ألم تتقول أوربا على الاسلام بما ليس فيه وتقذف أهله بما يندى له جبين الشرف، وترمى نبينا العربى صلى الله عليه وآله وسلم بفرى تصرخ منها الحقيقة ويضج لها التاريخ؟ فعلت ذلك ولا تزال تفعل إلى اليوم. فهل أضرّ بها لديكم فتيلاً؟ لقد أشبع الأوربيون ديننا زوراً وأوسعوا تاريخنا مسخاً وتشويها مما لو جمعنا بازائه كل ما قاله متعصبو المسلمين فيهم لما كانت نسبته اليه إلا كنسبة التأفيف إلى حرب البسوس؛ وهاهم أولاء يملأون الدنيا تبشيراً بدينهم، ودعاية لهم غير آبهين عند ذلك بأن

يسفهوا الأديان ويكيلوا أنواع الأفك على مشرّعيها . فهل أضر ذلك أيها الأستاذ بمسيحيتهم ؟ وهل أساء بثقافتهم لديكم الظنون ؟ أو هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

أما إذا قمنا لندافع عن ديننا بالتي هي أحسن ونظهر فضل تشريعه على العالم ببراهين كافية وأدلة وافية متذرعين بأقوال بعض الأوربيين أنفسهم غير قاذفين لأحد ولا متهجمين على أحد قلتم إننا متعصبون نسرف في القول على علماء أوربا الذين لا يمكن أن يزوروا ، وأنهم وضعوا الحقيقة في أعلى المنازل وجعلوها فوق كل شيء ، لأن فلاناً ألف كتاباً عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وفلاناً قال كلمات تعتبر ثناء على الاسلام ، والآخر مدح فلاناً المؤرخ العربي وقال إنه من سلف علمائنا ، فأولئك قوم رضي الله عنهم ورضوا عنه ، فاصمتوا فلن يقولوا إلا حقاً ، ولن يخبروا إلا صدقاً . ومعنى هذا أغلقوا أبواب البحث عن أوربا وتلقوا كل ما تلقيه عليكم بالتسليم . هكذا احتججتم وبهذا قضيتم ؛ فما لكم كيف تحكمون ؟

أما العصبية أيها الأستاذ فما أعظم رزء قومنا بفقدها . وأما العاطفة القومية فما أحوج أمتنا إلى الشعور بها فاننا الآن في زمان لا ملاذ فيه إلا للقوة ولا صولة فيه إلا للعصبية . فنحن في عهد تنشد فيه العصبية وتخمد فيه العاطفة الدينية ، ومن لا يتعصب لدينه لا يتعصب لقومه ولا وطنه ؛ وهل تلتمس القومية عند من لا عصبية له إلا كما تلتمسُ عند الدبوث خلال الشرف . إنني أنصحكم أيها الشباب عن هذا الضعف وأحذركم عن هذا التلاشي والاندماج في أوربا ، إنكم في حاجة لغير هذا

فيا شباب العرب ! كونوا في عصبيتكم لدينكم ناراً تتلهب ، وكونوا في عواطفكم أعاصير تلوى بكل ما هو أمامها من باطل وبغى . وكونوا في مبادئكم جبالاً لا تعبأ بالزلازل ولا تحركها هوج العواصف

إن المجد والحرية يدعوانكم من وراء القرون أن تتقدموا إلى الأمام . فتجهزوا يا أبناء جنود الفتوح وسلالة فوارس بدر . فيا الله عصبية العروبة وعاطفة الاسلام ، وسلام على صدور امتلأت أحناؤها بنور الاسلام ، وفي سبيل الله نفوس للآباء أزهقت طعناً بالرماح وقعصاً بالسيوف ضحايا على أعتاب الاسلام !

سنغافورة صالح بن علي الحامد العلوي

المصيف ...

للأستاذ محمود خيرت

خلا الرّبعُ في الصيف من ربّه فهلاَّ خلا الدمعُ من غَربه
وكم ضاق ربعٌ بسُكانهِ فولّوا فراراً على رَحبه
وحَسْبهمُ القيظ عذراً فمَن يُؤاوى الجحيمَ إلى جَنبه
ترى الناس في زُمَرٍ يركُضون منازيعَ كالطَّير في سِربه
إذا سعَّر الحرُّ رطْبَ النَّسيم تنقَّل يبحثُ عن رَطبه
ولَيْس السَّفارُ ووعثاؤه بصارفهِ عن جَنى طلْبه
ومهما تمرَّرَ طعْمُ الدواء فإنَّ السلامة في شرْبه

* * *

وأما المصيف فمن ذا الذي تعلَّقَ منه ولم يُصبه
هناكَ الطَّبيعةُ فتَّانةٌ ترفُّ من الحُسن في ثوبه
هناك الجمال وسُلطانه هناك الهوى بأساليبه
إذا ما الغواني رمى لحظهنّ شربتَ الدموعَ على نخبه
وهمّ الخليِّ ثقيلَ الهموم يُسِرُّ إلى جاره ما به
وقد سبقَتْ وعيَهُ حكمةٌ إلى موضع الجُرح من قلبه
وتخطرُ في الشَّطِّ أغصانُهنّ دلالاً فيُوغِلُ في عُجبه
وعُجْبُ المليحات من دأبهنّ وما كان للشطّ من دأبه

* * *

ويجلسن تحت مظلاّتهنّ تَناوى وكلٌّ إلى صحبه
يطوف الحديث بأرجائهنّ ألذّ منَ الصفو في ذَوْبه
إذا حل أُذْنَ نزيلِ الشباب لواهُ وزعزع من لُبّه
وإن حلّ أُذنَ نزيل المشيب أعاد الشباب إلى شَيْبه
ويسمعُه الطير في روضه فيهتزُّ سُكراً على قضْبه
ويجرى النَّسيمُ به عاطراً فتَعزُو الأنوفَ شذا طيبه

* * *

ومنهنَّ مَن راقها في العُباب زئير الضَّراغم من صَخْبه

فواقته تسبح جبارة ... فهل خرجت فيه من صلبه
فما راعها هولُ أمواجه ... ولا راعها الهول فى جُبّه
ومَن كان فى الخَطب ذا مِرّة ... أصاب التقاتل من خَطبه
ومَن سار للأمر لم يتّخذ ... له عدّةً ضلّ فى دَربه
فهذا المصيفُ ولذّاته ... وهذا هو السرُّ فى حُبّه
فشتان بين لهيب الجحيم ... وطيب النعيم وأسبابه

اسكندرية — محمود غنيم

تحية مصر

بقلم الياس قنصل

أبليتُ كلّ تصلّبي وعُرامى ... قال الزمانُ وما بلغت مرامى
جمعتهما بيضُ الخلال ووثّقتْ ... تلك العرى لغةُ الكتاب السامى
يتسابقان إلى العُلا بأخوّةٍ ... وشّى سناها صفحةَ الأرحام
قطران فى عقدِ العروبةِ برّزا ... أرضُ الشآم وموطن الأهرام

***

يا مصرُ «سعدُكِ» كان أيضاً سعدنا ... فى دفع شر الظلم والظلام
وجهادُ فتيةِ جلّقٍ لكِ حصّة ... منه، تخلخل أضلع الأخصام
من يخبر الغربىَّ أنّ رجاءه ... فى شرقنا وهم من الأوهام
يحظى بنيل الحقّ شعبٌ صادقتْ ... أسيافُه دعماً من الأقلام

***

يا مصرُ يا أمّ الحضاراتِ التى ... مهدتْ سبيل الحقّ للأفهام
ما دشّن التاريخُ قبلكِ للورى ... شعبٌ بآى السؤدد المترامى
أنتِ التى نطق الجمادُ بمجدها ... من غير ما عىٍّ ولا إبهام
فى كلّ تمثالٍ هناك عصارة ... من عزّكِ المبنىّ بالإقدام

***

فى أىّ عصرٍ لم تكونى معقلاً ... من كلّ نائبةٍ لكلّ مُضام
لجأ المسيحُ إليكِ فاتّضعتْ له ... بعد الهياج عواصفُ الأيام
وأتاكِ أعلامُ البيان فأمّنوا ... من شِرّة الحكّام والأحكام
خلقٌ لنيلكِ ما تضاءل فضلُه ... بل عزّزته فضائلُ الإسلام

***

للشعرِ فيكِ بلابلٌ صدّاحة ... علويّةُ الألحانِ والأنغام
قبستْ من الروض الجمال فكان فى ... إنشادِها بسنائه النمّام
لا ترتضى لخيالها يوماً سوى ... مغنى الأثير ومسرح الأجرام
قلبُ العروبة منصتٌ لنشيدها ... إنصاته للوحىِ والإلهام!

***

كم فى سجلّ الفنّ عندكِ من فتى ... بلغ النبوغُ به أجلّ مقام
إن كان فخركِ بالممثّلِ رائعاً ... ما القول فى النحّاتِ والرسام؟
فى كلّ ميدانٍ لأهلكِ جولةٌ ... محفوفةٌ بالفوز والإعظام
أنتِ المليكةُ والفنون لآلئٌ ... فى تاجكِ المتألق البسّام

***

يا مصرُ لم أنبس بذكركِ مرّةً ... إلاّ وروح الشوق طىّ كلامى
إن كانت الأقدارُ تأبى أن أرى ... فيكِ البهاء فأنتِ فى أحلامى
هذى مناجاتى لنيلكِ أكبرتْ ... ببنى الكنانة حكمةَ الأعوام
لا زلتِ للمجدِ المؤثّل شارةً ... وعليكِ منّى ألف ألف سلام!

عاصمة الأرجنتين — الياس قنصل

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٩ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

— ٣ —

كانت أولى ما آثر نيتشه اللامعة فى الفلسفة « نشأة المأساة » ، فعى المثل الأعلى الذى وجده فى البطل « ايشيل » والفيلسوف « شوبنهاور » والفنان « ڤاجنر » ، وفى أخريات أيامه جدّد نيتشه العهد لمثله الأعلى الذى تكرر فى « السوپرمان — الانسان الكامل » ، وبين هذين العصرين تمتد هاوية عميقة تفصل بين هاتين القمتين : عصر سلب ونقد مفرط . إن نيتشه قد عجل بالبناء وكأنى به قد شعر بأن مواد بنائه لم تكن صلبة بالمقدار الذى يجب أن تكون عليه . ألم يحس فى نشأته الأولى أن فى أصول « شوبنهاور وڤاجنر » مالا يمت بأصوله ولا يلتقى مع فكرته ، فعمل على اقتلاع ما لا يتصل به واستخلاص ما داخل فكرته مما لا يوائمها . وفى العصر الثانى رأيناه يقتفى سبيله الذى انتهجه فى البدء بعد أن حطم ما حطم من قيم فاسدة ونظم معفنة دون ما رأفة ولا شفقة . وبهذا انتقل من مرحلة السلب إلى مرحلة الاثبات ، واستبدل جرأة الناقد بذهول النبى . وكان من آثار ذلك العهد الأول « أشياء انسانية » و« آراء مختلفة » و« المسافر وظله » و« فجر » ، وكلها سطرت يوم كانت الحادثات تهد صحة نيتشه ، وكلها وليدة ذلك الحذر الأعمى من الوجود ، هـذا الحذر الذى ولده الداء فى نفسه ، فالريح الذى يخفق حوله بارد قاتم ، ونيتشه يلوح كالهدّام العابث الذى زال من صدره عامل الاشفاق ، يعمل على تهديم أسوار الشرائع وتحطيم أبراج الأخلاق ، فى كتابه « أشياء انسانية » يحارب التشاؤم ويسطو على معلمه « شوبنهاور » جاحداً مذهبه ، كافراً بتعاليمه ، لا يؤمن بأن الاوادة شيء قائم بذاته ، نافياً القول بامكان «شيء يقوم بذاته » ، يقاتل عاطفة الرأفة والشفقة ، ويرذل فضيلة الزهد ، هذه الفضيلة التى تجرد الانسان من شخصيته وأنانيته ، وفى هذا الكتاب أصبح لا يرى غاية الانسانية توليد العبقرية كما جهر من قبل ؛ ولكنها بمجموعها تمشى ولا غاية تسمى اليها . وفى كتابه « المسافر وظله » ، يعلن ذلك الظل الذى يلحق الأشياء حين تشرق عليها شمس المعرفة ، ويعتقد بأن الأشياء لاتدرس واضحة جلية عندما يجدد دارسوها دراستها على ضوء المعرفة « الثالية » لأنه لا يبدو إذ ذاك من الاشياء إلا أجزاؤها المضيئة ، أما الأجزاء القاتمة فتبقى بعيدة عن نظر المجتلى ، وهكذا ينبغى للمفكر الحقيقى الذى يرغب بأن تكون له فكرة تامة عن الحقيقة أن يتأملها من وجهها الخفى . وفى كتابه « فجر » يُخضع نيتشه لنقده مسألة « القيم والنظم الأخلاقية » التى يقدسها الناس ويحترمون قواعدها ، هو يرى أن الايمان بالواجب ليس بنظام سماوى ولا بتعليم أوحته السماء على البشر ، وليس هنالك قاعدة خالدة لتمييز الخير من الشر ، وهـذه الشريعة الأخلاقية التى تجبر الانسان على أن يكون صادقاً أمام نفسه فى كل شأن ، قد تنتهى بالاضمحلال ، فقد يغدو الانسان بالأخلاق ردىء الأخلاق ، كما يغدو بالدين زنديقاً ، لأن اخلاصه لعقله يزجيه إلى أن يقذف بنقده الأخلاق ذاتها ؛ وأن يكون فى ريب من نظمها

— ٤ —

والمثل الذى استخلصه نيتشه من الوجود أصبح يدنو الآن من المثل الواقعى ، فقد يرى أن كل كائن فى الثلاثين من أعوامه الأولى تتولد فيه حركة قد تحتاج الانسانية إلى ثلاثين ألف سنة لتحقيقها . الانسان الأول ينشأ فى حداثته مؤمناً متديناً ، ثم فاقداً لايمانه فى الله والخلود ، مأخوذاً بما يزين له العلم النظرى ، ثم يفقد العلم النظرى تأثيره ، حين يمسى لايشبع نفسه ولا يكفى عقله . وفى النهاية تستيقظ فيه الروح العلمية فتقوده إلى دراسة التاريخ والطبيعة درساً صحيحاً . وفى انسان العلم وفى الروح الحر المفلت من كل وهم زائل والمنعتق من كل اعتقاد باطل ، فى هذا الانسان يرى نيتشه الانسانية المتسامية ، فالروح الحر هو متشائم يعتمد على عقله ، وهو مفتقر إلى صحة أدبية قوية لا غش فيها ،

تعمل على الحيلولة بينه وبين الاستسلام إلى اليأس والفناء ، وليس من السهل على الانسان أن يزق عن جسده أثواب الخطأ الملتفة عليه فى كل جانب ليرى الحقيقة ماثلة أمام عينيه ، « فالحياة الانسانية غارقة بأكلها فى الأخطاء ، وليس فى استطاعة الفرد أن ينتشل نفسه من هذه الهاوية إذا لم يكن خصماً قاسياً على ماضيه ، كثير السخرية من الأهواء التى تدفعنا إلى الايمان بالمستقبل وبالسعادة الآتية » ، وبهذا يستطيع إذا كان جريئاً صافى الطبع أن يجد فى العلم ما يعمل على استنقاذ روحه من اليأس ، فالمعرفة المبطنة بالتشاؤم تنقذه من السأم الذى يأكل قلوب سواد الناس . حتى إذا قدر أن يتحرر من كل ما يحترمه الناس زاده تمتعه بالأشياء طرباً وجمالاً ، فهو يهوى أن يحلق فوق الاضطراب البشرى لا يخفق قلبه رعباً فوق العادات والأوهام والعقائد ، هو يحيا لكى يفهم فهماً صحيحاً ، وإن أسمى مكافأة عنده هى أن يتفهم فى نفسه وفى غيره من الأكوان هذه النواميس الضرورية المتجلية فى حركات الكون ، وأن يستدل - كالمنجم - على مستقبل الذرية البشرية

(وهل تعتقد بأن مثل هذه الحياة المتجلببة بذل هذه الغاية باعثة للفناء خالية من اللذة ؟... إنك لم تدرك أن السحب الثقيلة ، سحب الأحزان هى أثداء ضخمة ترضع منها أفاويق عذبة حلوة ، لتقبل الشيخوخة فتفهم بنفسك كيف تلبى نداء الطبيعة ، نداء هذه الطبيعة التى توجه العالم إلى السرور . هذه الحياة التى تخذت الشيخوخة سنامها اتخذت الحكمة ذروتها . . . وهل الحكمة إلا ذلك الشعاع المنبثق من الفرح العقلى . . . الحكمة والشيخوخة عنصران تراها على قمة طود واحد - هكذا شاءت الطبيعة - قد تقترب الساعة فلا تهتج ! ولتكن حركاتك الأخيرة - حين يتراكم ضباب الموت - جهداً تبذله وتوقاناً نزاعاً إلى النور ، لتكن تنهداتك الأخيرة أنشودة انتصار الحكمة)

ومنذ عام ١٨٨٢ بدأت تتبدل لهجة نيتشه تبدلاً محسوساً على أنه ثابر على نضاله ومحاربته لعقائد جيله حتى النهاية . فكتبه الأخيرة إنما هى غارة شعواء ضد المسيحية وما تحمله من زهد وتقشف . ولكن هذه الصيحات التى يرسلها قوية عالية أصبح يمازجها قليل من الألحان العاطفية ؛ ألحان نشيد الانتصار

عاد نيتشه إلى صحته بعد أن قضى أيام علة وسأم ، يرتقب الموت فى كل فجر يتنفس ، وفى كل ليل يتمسس . عاد إليه رجاء جديد وتنفس جديد ، - والأرض أرحب بكثير من كفة الحابل . . . ! - يقول فى فاتحة كتابه « العلم الطربْ » : (إن هذا الكتاب هو صيحة طرب بعد أيام طويلة مكفنة بالبؤس والعجز . هو أغنية مرح تتهادى فيها أصوات قوى بُعثت بعثاً جديداً ، وألحان إيمان واسع فى الغد وما بعده ، فى مستقبل مفتوح لى يحمل طيه حوادث قريبة ، ينطوى على بحار حرة وغايات جديدة تجذبنى نحو ما أستطيع أن أبلغه وأقدر أن أومن به) وهكذا تقشع من سماء نيتشه سحاب اليأس القاتم ، فبانت له سماء صافية مضيئة . رحل الشتاء المتجمد وخفق قلب ربيع جديد .

وفى هذه الخطرات الجديدة التى هيمنت عليه عادة الشك فى قيمة ذلك الروح الحر الذى بشر به وجعل منه مثالاً عالياً . إن هذا الروح الحر عابس ينقصه روح الطرب ، قد جعل منه الألم كائناً كئيباً وهذا الروح لا يزال ثقيلاً لم يتعلم أن يرقص وأن يلعب ويفرح حراً طرباً وثاباً على أمواج الحياة ، إن هذه الفكرة خلقت لنيتشه خيالاً جديداً انطوى على الصورة الرائعة التى وجدها فى نبيه « زرادشت » هذا النبى الذى قضى فى الصحراء عشرة أعوام ، مرتاحاً لعزلته وفكرته ، ثم نزل إلى الناس يلقنهم الديانة الجديدة ، ديانة السوبرمان والعودة الخالدة ، وهو يجمع حوله فى مناراته المنعزلة نماذج متقاربة صافية للانسانية المتألمة السامية . إن رجال الرغبة الكبيرة والاحتقار الكبير والسأم الكبير ؛ هؤلاء الرجال يجب أن يفسحوا مكاناً للسوبرمان الذى يشفيهم من تشاؤمهم ويضىء لأعينهم آفاق المستقبل ، ثم يموت فى اللحظة التى يبلغ فيها أعلى ذروة الحكمة ، فى اللحظة التى تبلغ فيها شمس وجوده سمتها الأعلى فى الهاجرة الكبرى ، معلناً عوته انتصار مذهبه

وقد رأينا توصلاً إلى تحليل فلسفة نيتشه تحليلاً منطقياً أن نقسمها إلى قسمين : الناحية السلبية ، وهى تنطوى على نقد الانسان الحالى ونقد إيمانه وغريزته ، والناحية الايجابية ، يبحث

فيها السوبرمان وعودته الخالدة ، وبهذا تبدو أفكار نيتشه مرصوفة ضمن نظام مذهبي لم تعرف به من قبل . لأن هذه الأفكار فى الآونة الأخيرة لم تثبت على حال معهودة فهى سريعة التبدل وسريعة التنقل . ونيتشه نفسه لا يريد أن يكون فيلسوف مدرسة . . . لأن الحقيقة عنده لا خلاف فيها . على أنه لم يحجم عن مهاجمة الآراء التى يراها فاسدة بأدلة باهرة وحجة منطقية « إلا أن غريزتى تريني فى هذا الانسان أو فى هذه الكتلة من الناس جماعة منحطة تدعو للاحتقار . . . وفى هذا المذهب أو فى هذا الايمان جرثومة مرض ... إنني أحاربهم وأكافحهم كما يكافح الخطر والمرض . فاذا صح أنني أنصر مذهباً حياً وخصومى ينصرون مذهباً فاسداً فالنصر لا ريب مواتٍ ، وفى الحالة المعاكسة لا يأتيني إلا الخسران ! وبما أنني لا أريد إلا شيئاً واحداً هو انتصار الحياة ، أراني أطرب بانكسارانى كما أطرب بانتصاراتى وكل ما وراء ذلك عندى سواء » .

أوليس من الغباوة أن نشيد مذهباً منطقياً لفلسفة نيتشه ضمن هذه البوادر ، شأن فلسفة « كانت » وشوبنهاور ، وليس للمنطق كبير شأن فى هذه الفلسفة ؟ . على أن نيتشه لفاصح حدسى كان يأتى المسألة ويدرسها من جوانب مختلفة ، يتلقفها ثم يدرسها ثم يفحصها حتى تحين اللحظة التى يطلق فيها حكمه الأخير . فاذا درست آثاره أثراً أثراً ألفيت أن المواضيع نفسها تطوى وتنشر ومن وراء ذلك عقل نيتشه العظيم . وإذا لم يأخذ نيتشه بالمنطق ونظامه الدقيق كما يأخذ به أرباب الفلسفة فليس معنى ذلك أن الرجل خلت أحكامه منها ، أو أن عقله لم يكن منطقياً . فالرجل حاد الفكر ، وفلسفته — من حيث المجموع — يربط بينها نظام منطقى دقيق . ولكن صحته السيئة حالت بينه وبين ترتيبها ترتيباً فنياً ، فجاءت مقاطيع متفككة بأجزائها كاملة بكليتها . مقاطيع أودع فيها صاحبها كل نفسه وقلبه

(يتبع) خليل هنداوى



صور من هوميروس

٤ – حروب طروادة

التعبئة

للأستاذ دريني خشبة

عاد منالايوس من رحلته فى الحدود ، وليته لم يعد !

لقد جُن جنونه حينما علم من أمر زوجه وضيفه ما علم !

« علام إذن كانت كل هذه الضجة التى أحدثتها تلك اللعينة قُبيل زواجها ؟ لقد تركت عشاقها الكثيرين صرعى حول قصر أبيها ، وظلت تتيه وتدل وتتأبى وترفض ، وفيهم شجعان هيلاس وحماتها وأباتها ، وملوكها الصيد ، وفرسانها الذاويد !

فيم إذن كانت كل هذه الضجة ؟

هل منحتنى جسمها فقط ، يوم اختارتنى بعلاً لها ؟ وهل ذخرت قلبها للعشق الأثيم ، والهوى الفاجر ، حتى تزفها شياطين الفتنة هذا الشاب الغُرانق اللاهى المستهتر ، فراحت تقدمه فوق مذبح جماله قرباناً للذتها النجسة ، وتقدمة لشبابه الدميم ؟ وا حَرَبا ! هل اختارتنى بعلاً لها ، لا لشيء إلا أننى ملك وسليل آلهة ؟ !

يا للفاجرة !

أفى ذلك البيت الرفيع الذُّرى ، ظلت تتقلب التاعسة فى ذراعىْ هذا الخائن ، شَبِقةً متلذذة ؟ هل ظل هو يضمها إلى صدره الثائر فى شدة وعنف ؟ ! هل كانت تستزيده ؟

أيتها الجدران الحزينة ! كم قبلةٍ دنسة أصمّت آذانك ، وكم صرخةٍ فاجرة دوت كالرعد فى حناياك ؟ حدثنى أيها الهواء السمم عما كنت تشهد فى صميمهما ، حين كانا ينفثانك من صدريهما سمّاً قتّالاً ! خبّرى أيتها الستائر ، أيتها المصابيح ، ياشموع قصرى ، أيتها الأرض الملونة ، أيها العرش المهين ، أيها التاج الذليل .. أيتها الكؤوس التناثرة ، والأكواب القلوبة .. تحدثى إلىّ ! !

حدثنى يا كل شيء هنا عن مهازل الفسق ومذابح الشرف !

آه ! الشرف ؟ ! الخرافة الكبرى !

الحرب ! . . . الحرب ! . . . الانتقام ! . . . الانتقام من الفاجرة ... اقتلوا الخائن ... يا حلفائى ... تنداريوس ... أدعُ حلفاءك ... لقد أقسموا جميعاً ... لقد كنت تتوقع هذه النهاية تنداريوس ... استيقظ ... استيقظى يا أسبارطة ... جنودى ... شعبى ... هلموا إلى ... »

وهكذا أرسلها منالايوس صرخةً داوية تجاوبت أصداؤها فى جميع أجواء هيلاس ، واستجاب لها كل قادر على الحرب فيها ... إلا القليل

لقد عجب عشاق هيلين حين وصلتهم صيحة تنداروس ، وصدّقوا يمينهم التى أقسموا ، فلبوا سراعاً ؛ وانتفضت هيلاس كلها فصارت ثكنة عسكرية تعج بالجند وتضج بآلات الحرب ، واضطربت البحار بالأساطيل تيمم شطر أوليس(1) ، حيث اتفقت الكلمة على أن يبحر منها الأسطول المتحد ؛ فلا يرسو إلا فى مياه طروادة

لبّى الصيحة كل عشاق هيلين الذين أقسموا اليمين فهرعوا من المشارق والمغارب بخيلهم ورجلهم ... إلا ملك إيثاكا ... أوليسيز (2)

أوليسيز

كبر فى نفس أوليسيز أن يتقدم لخطبة هيلين فترفضه فيمن

(1) أوليس ثغر كبير فى مقاطعة بووطيه (التى كانت طيبة حاضرتها قديماً)
(2) آثرنا هذه التسمية بدلا من التسمية الشائعة (عوليس) لوحشيتها وبدلا من أوليسيس أو يوليسيس لتكرار السين ، ويسمى أيضاً أوديسيوس

رقصت ، وهو مع ذاك ملك إيتاكا وبطلها الحُلاحل ، وفارس هيلاس الذى لا يشق له غبار . وكبر فى نفسه أن تؤثر عليه منالايوس ، وهو مع ذاك دونه شجاعة وأقل منه إقداماً حين يثار النقع وتستحر الحرب العوان ؛ وكبر فى نفسه أيضاً ألا تكون له زوجة يفاخر بها هيلين ، وأتراب هيلين ، وآل هيلين ، فذهب من فوره إلى عمها فتزوج ابنته الجميلة الرائعة بنلوب : « الزهرة التى تهتز للندى ، وترقص لخيوط الشمس الذهبية ، وتُغنّى مع الأطيار ، ويسكر النسيم إذا داعب خديها ... قُبلة الحب الخالد على خدود الجمال الطليق ، وابتسامة السماء الضاحكة فى قلوب المحبين المعذبين ... بنلوب ... الوديعة كالأطفال ، الحلوة كالرضى ، الصافية كقطرة الندى فى أوراق الورد ، المرحة كسطور الغرام فى خطاب الحب ... بنلوب ... التى تفخر الأرض بأنها تحملها ... والهواء بأنها تستنشقه ... والسماء بأنها تظلها وتشرف عليها ... والجبل بأنها تنظر إليه ... والبحر بأنه يغسل قدميها المعبودتين !

بنلوب ! ذات الفم العطرى ، والخد اللامع الورد ، والجبين الناصع الوضّاح ، والعنق الناهضة الجَيْداء ... وربيبة الآلهة ، ولجة الأولمب ، وبندورا الثانية ... »

تزوج أوليسيز من بنلوب هذه ، فأخلصت له الحب ، وأصفاها المودة والغرام ؛ وولدت له طفله الجميل التلألئ تلماخوس (تلماك) ، فزادت محبتها له ، وتضاعفت عبادته لها ، بعد هذا الرباط القدسى الكريم

عزّ على أوليسيز أن ينأى عن زوجته الجميلة وطفله العزيز المحبوب ، لا لشيء يجر عليه مغنماً أو رفعة ، ولكن ليحارب حرباً لا تعلم إلا الآلهة كيف تنتهى ؛ فقد تكون عقباها القتل أو الغرق أو الأسر ، فتعيش الزوجة الجميلة أيما محزونة ، ويحيا الطفل يتيماً مُفَجّعاً ... وعن ماذا كل هذه المصائب وتلك الآلام ؟ عن امرأة أذلت سادة هيلاس ، وجرحت كبرياء زوجها ، وفضحت أباها ... ثم ... هتكت عرضها ، إذا كان لها عرض ، بفرارها مع هذا العاشق الفاجر الأثيم !!

لم يشأ أوليسيز أن يقامر بسعادته وحياته فى هذه الحرب إذن ، ولو كان فى ذلك ، كله أو بعضه ، الحنث العظيم ... فما عين شرفٍ هذه التى يتمسك بها ملك كبير كملك إيتاكا ، من أجل امرأة ليس لها شرف ؟!

ليقعد إذن عن هذه الحرب ، وليصمّ أذنيه دون صيحتها الكبرى ، فإذا ألحّ عليه الملحون ... فهو مجنون مأفون مخبول ... لا تهيمن عليه مسكةٌ من عقل ولا ترشحه أثارة من تفكير

أرسلوا إليه رسولهم السياسى الكبير بالاميدز يحضه على الحرب ويذكره بيمينه التى آلاها ، ويحرضه على « الطرواديين اللؤماء ، الذين يوشكون أن يفضحوا الهيلانيّين فى أعراضهم » ولكنه ألفاه يحرث شاطئ البحر بمحراثٍ هائل يجره ثورٌ ذو خوار ... وحصان عربى أصيل !!

— « عم صباحاً أيها الملك ... »

— « ... ! ... »

— « ماذا يصنع مولاى ؟ »

— « أحرث هذا الحقل الخصيب ! »

— « أى حقل ؟ »

— « الحقل الذى ترى ... أليس لك عينان تسمع بهما ، وأذنان تريان ما أفعل ؟ »

— « عينان تسمعان ، وأذنان تريان ؟ ... »

— « اذهب ... لا تشغلنى ... أريد أن أبذر حقلى هذا الصباح »

— « وماذا عساك أن تبذر أيها الملك »

— « لست ملكاً لا تهزأ بى ... نحن الفلاحين نطعمكم ونسمنكم ثم يكون جزاؤنا أن تسخروا بنا ... اذهب ... اذهب ... »

— « وماذا تحاول أن تزرع هنا ؟ »

— « سأزرع ملحاً ؟ ! »

— « تزرع ملحاً ؟ ! وتحصد ماذا ؟ »

— « أزرع ملحاً ، وأحصد ... سمكا ... ها ... ها ... لا لا ... سأحصد باذنجاناً ... ولكن لماذا تقف هكذا قريباً منى ؟ لماذا لا تذهب ؟ »

— « ألا تعرفنى يا مولاى ؟ »

— « أرجوك ! أنا لست مولاك ولا مولى أحد ! اذهب ودعنى اشتغل »

— « أنا بالاميدز يا مولاى ! واأسفاه ! إن هيلاس كلها تنتظرك ليومها المشهود ! »

ـ « تنتظرنى ؟ ... إنها لابد جائسة يابالا ... يا باما ... يا بالا دىز ! ! »

ـ « لست بالادىز يا مولاى ! ... أنا بالاميدز ! »

ـ بالاميدز ! هذا عجيب تعال إذن فاعمل معى ... سأساً[1] ... ... »

ـ « الحرب يا مولاى ! الأساطيل فى أوليس ! »

ـ « أى حرب ، وأى أساطيل يا رجل ؟ »

ـ « سنحارب طروادة ! »

ـ « ولِمَ لم تذهبوا بعد ؟ »

ـ « نريد أن تكون معنا ؛ فالكل يهتف بك ويدعوك ؟ »

ـ « أنا ؟ يدعونى أنا ؟ .. أنت يا رجل لا تريد أن أزرع هذا الحقل ملحاً ؟ وماذا أصنع فى الحرب ؟ هل أخبروك أننى فارس ؟ ... اذهب اذهب ... سأساً ... ... سأساً ... »

ـ « ألا تعرف من أنت يا مولاى ؟ »

ـ « وهل تعرف أنت من أنت ؟ »

ـ « أنا بالاميدز ، وأنت ؟ »

ـ « أنا ؟ أتريد أن ترسل اسمى إلى الميدان ؟ ... أتتركنى بغير اسم يا رجل ؟ »

* * *

لم يستطع بالاميدز أن يفوز من أوليسز بطائل ، فقد مثل ملك إيثاكا دور مجنون تمثيلاً متقناً ، يحاول أن يفلت من هذه الحرب التى لاشأة له فيها ولا جمل ، والتى قد يقتل فيها أو يؤسر من أجل زوجة خائنة لا شرف لها ولا عرض . بيد أن بالاميدز لم ييأس حين رأى ما شاهده من جنون الملك ، فان وسواساً وقر فى قلبه أن هذا البله قد يكون تبالهاً ، وأن ما بالملك من مس إن هو إلا حيلة يحاول أن يفلت بها من أرزاء الحرب وأهوالها ، ثم هو حيلة كذلك للتحلل من اليمين التى أقسمها عشاق هيلين

لذلك لجأ بالاميدز إلى الحيلة هو الآخر ، فانقطع أياماً ظل يرقب الملك فيها عن كثب ، بحيث لا يراه أوليسز ، ولكن الجواسيس كانت تحمل أخبار السياسى الداهية أولاً فأولاً إلى رئيس البلاط ، وهذا يحملها بدوره إلى مولاه ... الذى يفطن إلى مكر بالاميدز فيبالغ فى ادعاء الجنون ، وينزل إلى البحر يحرث موجه ... بعد إذ فرغ من حرث شاطئه ! ...

ويسقط فى يد بالاميدز فيطلق آخر سهم فى كنانته ...

ذلك أنه تحايل فسرق تليماخوس الصغير ، ولى عهد أوليسز ، والأعز عليه من نفسه ، ومن الدنيا وما فيها ... سرقه فذهب به إلى حيث والده يحرث الشاطئ ويحرث البحر ، فطفق يضع الغلام أمام المحراث ليرى ما يكون جنون الملك ، هل يقتل ابنه ، ويكون بذلك مجنوناً حقاً ، أم يتفاداه ، ويكون جنونه محض ادعاء وبلهه تلفيقاً فى تلفيق ؟!

ولكن الملك كان أحرص على ولى عهده ، وقرة عينه ، من أن يتم فيه حيلة بالاميدز الداهية ! فكان كلما تعرض ابنه لخطر الموت ، لوى عنان الثور ، وذاد الفرس ، متفادياً الطفل إلى الناحية التى لا يكون عليه فيها خطر . . .

فتضاحك بالاميدز ، وفضح جنون الملك ، وأخجل حيلته .. ثم لم يزل به حاضاً محرضاً حتى أقنعه بوجوب خوض هذه الحرب مع إخوانه الهيلانيين

* * *

ازدحمت جحافل الهيلانيين فى أوليس ، وانعقد المجلس الحربى لانتخاب القائد الأعلى ، فاختير ابن الشمس البكر ، أجاممنون ، شقيق منالاوس وصفيُّه ، بالاجماع

اختير أجاممنون للقيادة العامة ولو لم يكن خير أعضاء المجلس الحربى . وكيف يكون كذلك ومن أعضاء هذا المجلس أوليسز العظيم ملك إيثاكا ، وأجاكس بطل الأبطال وفارس كل نزال ، ونسطور أحكم من أشار بخطة فى معمعان ، وديوميدز المحارب الصنديد ... إلى آخر هذه العصبة المختارة من جيرة الأولمب ، والسادة النجب من فرسان هيلاس

اختير أجاممنون إذن لأنه شقيق منالاوس وممثله فى هذه الحرب ، ثم لأنه أكبر أعضاء المجلس الحربى سناً ، وهو مع ذلك أحد شجعان هيلاس المعدودين

* * *

انتظمت صفوف الجند ، وأخذوا فى مران عنيف أياماً معدودات ، ركبوا بعدها فى سفائن أسطولهم العظيم ، وظلوا ينتظرون إذن القائد الأعلى ، أمير البر والبحر ، بالاقلاع ، فتجرى بهم الجوارى المنشآت فى موج كالجبال ... إلى ... طروادة ! ...

(١) سأساً بالحمار دعاه للشرب أو الانصراف أو العمل والسير



النقد والمثـــال

للأستاذ أحمد الزين

كتبت إليّ – أعزّك الله ، وأمتع الأدباء ببقائك – أنه قد بعد عهدك بمطالعة ما كنت أكتبه فى الصحف من فصول فى النقد ، ممتعةٍ فى حسن ظنك بأخيك ، وبحوثٍ ضافيةٍ دقيقةٍ فيما تنظره عين رضاك عن صديقك ، وقلتَ : إنها لامست موضع هواك ، وحققت غاية مناك ، وشفت من صدرك غلة لم يكن ليشفيها ما طالعتَ أو سمعتَ من فصولٍ غيرها فى النقد مما ملئت به صدور الصحف والمجلات ، وحُشيت به بطون المؤلفات ، وأفاض فيه أساتذة النقد الأدبيّ فى الدروس والمحاضرات ، إذ كان أكثرها بل كلُّها من إملاء الغرض ووحى الهوى ، وليس للفن فيها من الحظ إلا بمقدار ما يبرّر الناقدُ به تفضيل صاحبه على غيره ، واتهام الآخر بالعىّ والقصور فى نثره أو شعره ؛ يُغفِلون الأذواق والعقول ، ويحكّمون النزعات والميول ، ويتبعون القلوب على ما يعرفون من تقلّبها ، ويستملون العواطف الخادعة على تحوّلها وعدم استقرارها ؛ فتخرج بحوثهم مختلّة السياق ، مضطربة الآراء ، لا تحمل قارئاً على احترامها ، ولا باحثاً على الاعتماد عليها . فهى بقصائد المدح والهجاء ، أشبهُ منها ببحوث الأدباء والعلماء ، حتى إن الشعراء والكتاب أنفسهم لم يعودوا يأبهون لما ينشره هؤلاء النقاد عن ثمرات قرائحهم ، إذ كان نقدهم إما مدحاً تمليه مودّة أو منفعة ، وإما هجاءً تبعثهم عليه عداوة أو حسد ، ولقد قلتُ مرة لبعض الشعراء المجيدين : إن فلاناً الناقد المعروف قد كتب فصلاً طويلاً فى صحيفة كذا يثنى فيه على بعض قصائدك ثناء لو قرأته لسررت به ، وهششت له ؛ وطفقت أطيل فى ذكر ما كَتَب ؛ فقال صاحبى : بعض هذا يا أخى ، فما مَدْحُ هؤلاء مما أرجو ، ولا نقدهم مما أخشى ، فما أيسر الوسائل التى يُنال بها مدحُ هؤلاء ورضاهم ، وإن ثناءهم لأشبه شىء بالشهادة للميت حين يُحمل إلى قبره ، ويقال : (ماتشهدون فى هذا الرجل ؟) فيقول المشيّعون : (صالح وابن صالح) ولعله كان على خلاف ما شهدوا به فى حياته ، وقد أراح الله البلاد

يحملون إليها المنايا الصفر ، والنوائل السود ، فى شفار المشرفيات البيض !

ولكن أمير البحر والبر لم يأذن لهم بالاقلاع ...

ذلك أن بعض أعضاء المجلس الحربى أشار بوجوب استيحاء الآلهة عما إذا كانت حملتهم العظيمة هذه قد كتب لها الظفر والانتصار ، أم الهزيمة والانكسار ؟ ليكونوا من أمرهم على بينة ، وليكونوا أيضاً قد استخاروا أربابهم فتخير لهم ، ولستشاروها فتخلص لهم المشورة ، ويمضون بعد ذلك على بركتها وفى حراستها

وارتقبوا نبوءة الآلهة بقلوب فارغة ، ونفوس مبتهلة . . .

ومضت أيام . . .

ثم رأوا إلى كاهن المعبد يدلف نحوهم فى هدأة فجر صامت ، فشخصت أبصارهم إليه ، وظنوا فيه الظنون

وجلس الكاهن المُسن يقلب فى القادة عينيه الكبيرتين ، وصمت لحظة ثم قال : « أين ابن پليوس أيها الملأ . . . ؟ »

ونظر القادة بعضهم إلى بعض ولم يحيروا . . .

فقال الكاهن : « ابن پليوس رب الأعماق ، من زوجته ذيتيس ! أليس فيكم أخيل ؟ ! . . . »

فأجاب أجا ممنون : « ومن أخيل أيها الأب القدس ؟ ! »

فقال الكاهن : « هو ابن ذيتيس التى قالت فيها ربات الأقدار إنها تلد غلاماً يكسف مجده مجد أبيه . . . ابحثوا عنه ، فلن تفتح طروادة إلا على يديه ... لن ينفعكم أن تذهبوا بدونه ... هكذا قالت الآلهة . . . »

(لها بقيــة)

دريني خشبة

والعباد بمانه ، ولم تقتصر متابعةُ الغرض ومسايرةُ الهوى فى النقد الأدبىّ على صغار النقاد فى هذا البلد ، بل شمل ذلك أساتذة النقد وذوى الكلمة الفاصلة منهم ، ومن يُرتقب رأيُه فى كل أثر فنىّ ، كما يُرتقب المتّهم حُكمَ القضاء العادل الذى لامردّ له ، ولا جدال فيه ، فطغى على الجميع سيلُ الغرض ، واندفعوا فى تيار الهوى ، ولم يبالِ واحد منهم بمكانه فى الأدب ، ولا بمنزلته الرفيعة فى نفوس الادباء ، وآيةُ ذلك أنك لا تجد اثنين من الناقدين يتفقان فى الشاعر الواحد على رأيٍ واحدٍ فى شعره ، ويضمانه فى المنزلة التى يستحقها مع غيره ، بل تختلف الآراء فيه — بل فى البيت الواحد من شعره — اختلافاً ظاهراً إلى حدّ التناقض ، فبينا أحدهم يرى فى الشاعر أنه شاعر العربية ، إذا بالآخر يقول : (إنه ليس بالشاعر ولا شِبه الشاعر) ، وهكذا ترى المبالغة والاغراق فى طرفى الرأى ، مما أسقط النقد الأدبىّ وأضاع الغرض منه فى تهذيب الفن ، وأضعف أثره فى نفوس الكتاب والشعراء . مع أنه مما لا نزاع فيه أن للذوق الأدبى مقياساً عاماً لا يختلف فى أصله ؛ وإن اختلف فى بعض الفروع التى لا تقدّم ولا تؤخّر فى الحكم على الشاعر فى جملته ، ولا فى منزلته الشعرية بين أبناء جلدته

وثمّة أمر آخر هو أمرّ نكايةً فى الأدب ، وأبلغُ فى هدمه ، وهو أن أكثر هؤلاء النقاد يقيسون الأدب العربىّ بمقاييس الأدب الغربى ، فيطلبون إلى الشاعر المصرى العربى أن يحاكى شعراء الغرب فى أغراضهم ومعانيهم ، وإن كان أكثرها لا يلائم بيئته ، ولا يجرى مع قانون حياته ، ولا يتفق بوجه مع الطبيعة الشرقية ؛ وأطالوا فى اتهام من خالفهم بالجمود ، وضيق الأفق الفكرىّ حتى حاول بعض الشعراء الناشئين تكلف هذه المحاكاة مراغمةً لشعور القلب وإحساس الفؤاد ، وإرضاءً لهؤلاء النقاد فخرجت قصائدهم لاشرقية ولاغربية ، مشوّهة الصور ضعيفة الأثر ، كالحة الظاهر ، جوفاء الباطن ، لم تصوّر إحساساً فى فرد ولافى جماعة ، ولم تعبر عن شعور فى الأمة ولا فى الشاعر نفسه ، فلم تسترع هذه القصائد سمعاً ، ولم تجتذب اليها قلباً ؛ ولولا طائفة قليلة أمسكت بسلسلة البيان أن تنقطع ، وآوت اليها طرائدَ الشعر العربىّ ، وصبرت وصابرت فى مدافعة هؤلاء المستغربين فى شرقهم ، وصانت ذخائر العرب — وأخصها اللغة — حتى تسلمها إلى طائفة أخرى مثلها ممن قوى فى نفوسهم شعورُ القومية ونظروا فى الأدب العربى نظرةً واسعةً منصفة ، فعرفوا من نفائسه ما لم يعرفه سواهم ؛ لولا هؤلاء لأفل نجم البيان العربىّ عن هذه البلاد ، ومات الشعر أو كاد

وقلتَ : إنّ آثر النقّاد عندك وأجداهم بحثاً على طالب الشعر والكتابة من يُعنى بالبحث فى آثار الكتاب والشعراء واختيارِ ثمرات قرائحهم ، فيميز جيّدها من رديئها ، وناضجها من فِجها ، ويُرى القارىء أسباب الاجادة فيما يستجيد من شعر أو نثر فيأخذ بها ومواضع الزّلل والمؤاخذة فيما لا يستجيد منهما فيجتنب الوقوع فيها

أما البحث فى تحليل حياة الشعراء وكيف نشأوا والعصور التى يعيشون فيها ، والبيئاتِ المحيطة بهم فذلك أولى بالمؤرخ الأدبىّ منه بالناقد الفنىّ ، على أن تلك البحوث لاتفيد طالب الشعر فائدة قليلة ولا كثيرة فى الاجادة الفنية ، وإن إفادته فى توسيع ثقافته العلمية

ثم سألتنى أيها الأخ الكريم أن أعود إلى محادثة الأدباء والتأدبين فيما قرأتُ وأقرأ من جيّد الكلام ورديئه ، وتبيين سبب الاجادة فى الأول ، وموضع المؤاخذة فى الآخر ، والترجيح بين المتساويين فى أول النظر على صاحبه ، ثم لا أذكر بيتاً فيه زلّة لشاعر إلاّ عقبتُه ببيت قد سلم منها لمعاصر أوغير معاصر ، مفاضلاً بين البيتين ، موازناً بين الشعرين ، ليكون ذلك مثالاً يُتّبع ، وقياساً ينتهج ، فان لم أجد فيما أحفظ من الشعر مايصلح مثالاً ، ويتخذ قياساً ، غيّرتُ من البيت نظمه ، وداويتُ سقمه ، وذهبتُ بشكله ، وأبقيت على أصله ، وذلك هو ماانتهجته فى البحوث السابقة ، وشرحتُه فى أول بحث كتبتُه ، وإنا لسؤالك لباذلون ، ولدعوتك لملبون ؛ نسأل الذى فطر الفطرة ، ووهب القدرة ، أن يعصمنا من هوى لانستطيع غلابه ، وأن يبعدنا من خطأ لا نعرف صوابه ، ولست أعد قراء (الرسالة) بأن تحمل حديثى إليهم فى كلّ أسبوع ، بل قد تطول الفترة بين الحديثين ، وقد تقصر ، إذ لم أتعوّد فيما أكتب التقيّد بالوقت ، فان هذه القيود الصحفية مما يحمل الكتاب فى بعض الأحيان على أن يملأوا الصحائف بالسطور ، وإن خلت من فائدة الجمهور

أحمد الزين

البريد الأدبي

هنري باربيس H. Barbusse

توفى فى أواخر شهر أغسطس المنصرم كاتب وشاعر من أعظم كتاب فرنسا وشعرائها المعاصرين ، هو هنرى باربيس ؛ وكان باربيس زعيم المدرسة الثورية وأعظم كتابها ، ولم تمض أشهر قلائل على صدور كتابه الأخير الذى كتبه عن ستالين طاغية روسيا البلشفية ، وعن تاريخ الحركات الثورية فى روسيا القيصرية ، وهو الكتاب الذى أشرنا إليه وقت صدوره فى هذا المكان من « الرسالة »

وقد ولد هنرى باربيس فى ازنيير فى سنة ١٨٧٤ ، وتلقى تربية جامعية حسنة ، ونظم الشعر القوى منذ شبابه ، وكتب القصص ؛ وظهر لأول مرة فى أفق الأدب بصدور ديوانه المسمى « الباكيات Pleureuses » فى سنة ١٨٩٥ م . وفى سنة ١٩٠٣ م نشر قصته « المتضرعون Les Suppliants » ، ثم أخرج قصته « جهنم L'enfer » فى سنة ١٩٠٨ ، وامتهن باربيس الصحافة وبرز فيها ؛ وفى سنة ١٩١٠ تولى تحرير صحيفة Je sais tout الشهيرة ولما نشبت الحرب الكبرى انخرط فى سلك الجيش العامل كجندى فى المشاة ، وأبدى شجاعة فائقة فى الذود عن وطنه استحق من أجلها وسام « صليب الحرب » ، وفى أثناء الحرب أخرج باربيس أعظم قصصه وهى : « النار Le Feu » وهى مذكرات فرقة محاربة والشعلة Clarté ، وبهما يرتفع باربيس الى صف أعظم كتاب العصر ويصل الى ذروة قوته ، ولما انتهت الحرب وقع تحول عظيم فى تفكير باربيس وفى مبادئه فاعتنق المذهب الشيوعى ، وتولى التحرير فى جريدة « لومانتيه » الشيوعية التى أنشأها جان جوريس واشتهر بكتاباته الملتهبة ، وفى سنة ١٩٢٠ أصدر باربيس قصته « النور فى الهاوية Les lueur dans L'abime » ؛ وفى العام التالى أخرج قصة قوية أخرى عنوانها : « بعض زوايا القلب Quelques coins du coeur » ؛ ثم أصدر كتاب « الاغلال Enchainements »

وفى سنة ١٩٢٧ أصدر كتابه « بيان الى العقلاء Manifeste aux intellectuels » ، ومنذ أشهر قلائل أخرج كتابه عن ستالين . وكان باربيس فى أعوامه الأخيرة دائم التردد على موسكو وثيق الصلة بزعمائها ، وكانت وفاته فى موسكو فى مستشفى الكرملين بعد مرض قصير . ومما يجدر ذكره أنه تزوج من ابنة كاتيل مانديس الكاتب والفنان الشهير ، وهى أيضاً كاتبة وأديبة معروفة

قوانين الملكية فى روسيا

يخطئ من يعتقد أن روسيا البلشفية تعيش فى ظل النظم الشيوعية ؛ والحقيقة أنها لا تكاد تطبق اليوم نوعاً من اشتراكية الدولة أو الاشتراكية المخففة ؛ وقد اقتنع البلاشفة بعد تجارب شائكة أن الحياة الاقتصادية والاجتماعية المنظمة فى ظل الشيوعية ضرب من الخيال . ومما يدل على أن روسيا السوفيتية تعود شيئاً فشيئاً الى النظم الفردية ، أن الحكومة البلشفية قد أصدرت أخيراً قانوناً جديداً بتحديد ملكية الأراضى فى مختلف الولايات الروسية ، ولا سيما فى جمهوريات التركمان وأزبكستان وأزربيجان وقازاقستان ، وبعض مناطق سيبريا الزراعية ؛ وفيه تفصيل لما يمكن أن علكه المزارع من الأرض أو الماشية لاستعماله الشخصى ؛ والقانون الجديد يتحدث عن وضع اليد والحيازة فقط ، على أن تلحقه قوانين أخرى بتثبيت الملكية متى استقر تقسيم الأراضى نهائياً . وليس القانون جديداً فى الواقع ، فان المزارع « الكولاك » يتمتع منذ أعوام بحق ملكية حديقته وبعض الماشية ، ولكن القانون الجديد يزيد فى نسبة الملكية الى حدود لم تعرف من قبل فى ظل النظام البلشفى ، هذا فضلاً عما يتضمنه من الوعد بتثبيت الملكية وتطمين المزارعين بذلك على مصير أراضيهم ومواشيهم . وبمقتضى هذا القانون يصبح للمزارعين فى سيبريا الحق فى امتلاك أرض تبلغ مساحتها الى هكتار واحد حسب منطقة الأرض ، وفى امتلاك الماشية من خمسين رأساً من

الرذير الى مائتى رأس ، ومن الكلاب ما شاء . وفى جمهوريات أزربيجان وأزبكستان وما إليها يستطيع الزارع أن يمتلك من ٢٠ إلى ٣٠ فى المائة من الهكتار أرضاً زراعية ، ومن الماشية جواداً وحماراً وخمس عشرة الى ثلاثين رأساً من الغنم

وفى هذه القوانين الجديدة دليل قاطع على ما انتهت اليه سياسة السوفييت من التطور نحو الفلاحين . وقد كان لتنفيذ المشاريع الاقتصادية الجديدة أثر كبير فى هذا التطور ، لأنها أقنعت زعماء البلاشفة بأن الترويح عن الزارعين وتحريرهم من قيود الانتاج الاجماعى مما يضاعف أسباب الانتاج والرخاء الزراعى

أعمدة سبعة من الحكمة

لم يمض على وفاة الكولونل لورنس زهاء أربعة أشهر ، ومع ذلك فان آثاره وذكرياته تشغل اليوم فراغاً كبيراً فى الأدب الانكليزى ؛ فقد صدرت أول طبعة جديدة تذكارية من كتابه الشهير « سبعة أعمدة من الحكمة Seven Pillars of Wisdom » وهذه الأعمدة السبعة هى : القاهرة وأزمير وقسطنطينية وحلب وبيروت ودمشق والمدينة . وكان الكولونل لورنس قد بدأ فى كتابته منذ سنة ١٩٢١ ، وفيه يقص سيرة أعماله المدهشة فى بلاد العرب ، وما اشترك فى تدبيره من الثورات والانقلابات والوقائع الغريبة التى انتهت بتمكين الانكليز من الاستيلاء على فلسطين والعراق ، وسيرة مغامراته الشخصية ، وفيه روايات وأسرار خطيرة عن كثير من القادة والزعماء الذين عملوا مع لورنس . وفى سنة ١٩٢٦ ظهر كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » وظهرت منه فقط مائة وعشرون نسخة باسم المشتركين ، فكأنه لم يطبع ولم يذع فى الواقع إلا فى دائرة خاصة جداً ، ثم لخص منه لورنس كتاباً آخر هو « الثورة فى الصحراء » وهو الذى طبع وأذيع بكثرة ؛ وقد كان من أكبر أمانى أصدقاء لورنس والمعجبين به ، أن يخرج كتابه الشهير فى طبعة جديدة ذائعة ، والآن تتحقق هذه الأمنية بعد وفاته ، ويصبح كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » فى متناول كثيرين ممن لم يحظوا باقتنائه

مآسى التاريخ

صدر أخيراً كتاب جديد للمؤرخ الفرنسى ج . لينوتر الذى توفى منذ أشهر قلائل ، عنوانه : « مآسى التاريخ Drames de l' Histoire » ، وقد اشتهر لينوتر بنوع خاص من التاريخ لبث يكتبه أعواماً طويلة فى جريدة الطان تحت عنوان : « التاريخ الصغير » وفيه يتناول من حوادث التاريخ المنسية ومآسيه الطريفة ما يفوق فى الحقيقة كثيراً من وقائع الخيال ، وتوفر لينوتر على دراسة هذا النوع ، حتى أصبح أستاذه الحقيق ، وكانت الثورة الفرنسية وحوادثها العجيبة أعظم مصادره ، فتناول كثيراً من حوادثها الخفية وتفاصيلها العجيبة التى يغفل عنها المؤرخ العام وأخرج فيها كتباً ورسائل ساحرة ، ومن مؤلفاته الشهيرة فى هذا الباب : « من ثورة إلى أخرى » و « من السجن إلى النطع » و « ملك بلا مملكة » و « باريس الثائرة » وغيرها ، وأما كتابه الأخير « مآسى التاريخ » فقد كتبه فى أواخر حياته ، وتناول فيه عدة مآس شهيرة مثل سقوط الجيرونديين ، ومصرع الدوق دنجين ، ومقتل الكاتب بول لوى كوريبه وغيرها ، وكتبها بأسلوبه القوى الساحر ، الذى يدنو فى تفاصيله من الرواية ، ويجمع فى جوهره عناصر التاريخ المنسية ، وقد كانت فصول لينوتر التى تنشرها « الطان » مثلا بديعاً لهذا النوع الشهى من التاريخ ، وكان لينوتر دائب التوفر على اخراجها حتى أواخر أيامه ، بل نذكر أن الفصل الأخير الذى كتبه فيها لم ينشر فى الطان إلا بعد وفاته بيوم أو اثنين ، وقد فاز لينوتر قبل وفاته بنحو عامين بكرسى الاكادمية ، وكان من الخالدين

لقب جديد لربات الجمال

كان لفوز الفتاة الاسبانية الحسناء كاناريتى أليشا نافارو فى مباراة الجمال الأوربية العامة وفوزها بلقب « مس أوربا » وقع عميق فى اسبانيا حيث يبدى الشعب الاسبانى حماسة عظيمة لهذا الفوز لا سيما وانه أول حادث من نوعه فى اسبانيا ؛ ويؤمل الاسبان أن تفوز فتاتهم بتاج الجمال العالمى . بيد أن بعض المفكرين الاسبان رأوا أن الجمال المادى وحده لا يكفى لأن تتبوأ الفتاة مركزها الممتاز فى المجتمع ؛ ولا بد أن تتحلى إلى جانبه بالصفات الأدبية والمنزلية التى يجب أن تختص بها المرأة ، ولذلك أقيمت فى مدريد مباراة من نوع خاص بين لفيف من الفتيات الحسان يتبارين للفوز بلقب « ربة الدار » ؛ وتضمنت هذه

المباراة امتحان الفتيات فى أعمال الطهى والكى والخياطة وغيرها من الأعمال المنزلية ، ففازت بهذا اللقب الآنسة كونشيتا مانسيجوى دى لارا ، ونالت أول لقب من نوعه بين الحسان وهو « ربة الدار » • Miss Dona de Casa •

أغراض المستشرقين

قرأت فى (الرسالة) ما كتبه الأستاذ محمد روحى فيصل فى أن علماء الشرقيات أبعد الناس عن البحث العلمى المجرد يوم يخوضون الأبحاث الاسلامية ، وأنهم يقصدون من الاستشراق خدمة دينهم وسياسة دولهم . وقد لامنى لقولى من مقالة فى الرسالة إن علماء الشرقيات يحمدون لنشرهم كتب العرب ، وإنه كان على سادتنا العلماء أن يأخذوا باليمين آثار السلف يحيونها ، حتى لا يطول مقامها فى الخزانة تنتظر عطف أبناء الغرب عليها . إنى موافق على ماقاله فى تزييف بعض من تعلموا لغات الشرق واختصوا فى علومه ، إلا أننى لا أغمط حق العاملين منهم ، لتفضلهم بنشر كتبنا . وأرجو ولا أزال أرجو أن ينقطع فريق من علمائنا وأدبائنا لمساهمة علماء الشرقيات هذه الخدمة الجليلة ؛ لأن الكتب كتبنا ، والمدنية مدنيتنا ، وصاحب البيت أحق الخلائق بالعطف عليه وعلى ما فيه

وقد وقع لصديق العلامة الشيخ عبد العزيز جاويش ، يوم ألقيت فى دار المعلمين العليا بالقاهرة (٥ مايو سنة ١٩٢٧) محاضرة فى « أثر المستعربين من علماء المشرقيات فى الحضارة العربية » وعددت ما نشره علماء الشرقيات فى كل أمة غربية من كتبنا ، أن قام رحمه الله يعدد أغراض علماء الشرقيات من الغربيين فى الدين والسياسة ، وما كان موضوع المحاضرة غير التنويه بفضل من خدموا آثار أمتنا فاستفدنا نحن بالعرض . وأذكر أن بعض أساتذة مصر ممن حضروا المجلس تبرموا بكلام الأستاذ جاويش وعدوه خروجاً عن الموضوع ، لأنى لم أمتدح المستشرقين إلا من الوجهة التى أفادوا بها حضارتنا ، حتى إن الأستاذ على الشمسى باشا (وزير المعارف المصرية يومئذ) كان ممن حضر فقال : سامح الله الأستاذ جاويش ، ان صاحب المحاضرة لم يتعرض لمدح المستشرقين فى السياسة والدين ، وإنما ذكر افضالهم على لغتنا وحضارتنا بنشر كتبنا . قال ذلك للأستاذ سيد كامل رحمه الله ، (راجع المحاضرة فى مجلة المجمع العلمى العربى م٧ ص ٤٣٣)

فأنا والحالة هذه إذا امتدحت من علماء المشرقيات ، وأعجبت بعملهم فى خدمة آدابنا ، فانما تنويهى بهم من هذه الناحية فقط . وأعلم أن كثيرين منهم يعملون لسياسة بلادهم أولا ، وأن منهم دعاة دين متعصبين يتخذون الاستشراق سلماً لخدمة دينهم على نحو ما كان أسلافهم فى القرون الوسطى ، ومن أحب أن يقف على تخريف المخرفين من المستشرقين ، وانصاف المنصفين منهم فى أحكامهم على الاسلام والعرب فليرجع إلى كتابى الأخير « الاسلام والحضارة العربية » فمعظم هذا السفر يدور على هذا المحور ، وأحب مع هذا ألا يفوتنا أنه ليس من المعقول أن نكلف من لم يتأدبوا بأدبنا ، ولم تعمل فيهم أحاسيسنا ، ولا دانوا ديننا ، أن يعتقدوا ما نعتقد ، ويكتبوا فينا ما نحب . فلكل جنس تفكيره ، ولكل جيل مدنيته ، ولكل إنسان أهواؤه وأغراضه .

محمد كرد على

الأستاذ صاحب الرسالة

لا يزال الأستاذ صاحب الرسالة ومحررها يعالج منذ أسبوعين مرضاً شديداً قطعه عن الناس وعن العمل . والحمد لله قد طرأت على صحته عوارض التحسن منذ اليوم ، ولا يمضى وقت طويل حتى يستأنف الأستاذ جهاده الموفق فى خدمة الأدب والثقافة



١ — حياة الوزان الفاسي وآثاره

تأليف الأستاذ محمد المهدي الحجوي

٢ — تاريخ الصحافة (الجزء الرابع)

للفيكونت فيليب دي طرّازي

٣ — تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني

تأليف الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف

للأستاذ محمد بك كرد علي

في شمالي أفريقية اليوم حركة مباركة في التأليف ، تدل على انتباه فكري يبشر بخير كثير لتلك البلاد الاسلامية العربية ؛ تطالعنا تلك البلاد الحين بعد الآخر بتآليف يجوّد كتابها ما ينشرون ؛ ويضعون أسفارهم على النمط المصري الحديث ، ومما طالعناه مؤخراً « التذكار فيمن ملك طرابلس ، وما كان بها من الأخبار » لابن غلبون الطرابلسي نشره وعلق عليه الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي ، و « كشف الحجب عن مدنية العرب » للأستاذ محمد بن عمار الورتاني التونسي ، و « رسائل الرحالة » العالم عبد العزيز الثعالبي ، وبعض تآليف في الأدب والشريعة للأستاذ طاهر بن عاشور ؛ وتآليف عالم أفريقية حسن حسني عبد الوهاب معروفة مشهورة ، وكذلك تآليف العلامة الشيخ محمد بن أبي شنب رحمه الله في الجزائر فانها من المتع الجيد و « كتاب الجزائر » للأستاذ أحمد توفيق المدني من أجود ما كتب في تاريخ الجزائر وتقويم بلدانها وحالتها الاجتماعية والادارية والسياسية والاقتصادية . هذه بعض ما وصل الينا من تآليف أهل المغرب الأدنى والأوسط ، أما المغرب الأقصى ، فقد ظهر أربعة مجلدات ضخمة من كتاب « اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس » للمؤرخ المدقق مولاي عبد الرحمن ابن زيدان ، وهو في تاريخ مراكش في السياسة والاجتماع والأدب ، أبان فيه واضعه عن نَفَس طويل ومادة واسعة ظهرت منها عظمة تلك الديار في الدهر السالف ، ونشر في فاس الأستاذ عبد الحي الكتاني كتباً نفيسة وعلق عليها فأحسن ؛ ونشر العلامة سيدي محمد بن الحسن الحجوي الفاسي في فاس والرباط (رباط الفتح) كتاب « الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي » في أربعة مجلدات ، دل على علو كعبه في الشريعة وتاريخها وأدبها ، وله غير ذلك من المصنفات والأبحاث والمحاضرات والمسامرات ، وها هو نجله الأستاذ أبو عبد الله محمد المهدي يطالعنا ببحث طريف في حياة الوزان الفاسي وآثاره ، فكان النجيب ابن النجيب . زادنا الله في أفريقية من أبناء نجباء الأبناء

* * *

هو بحث قدمه المؤلف لمؤتمر المستشرقين الثامن الذي أقامه معهد المباحث العليا المغربي بفاس يوم ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٣ في ترجمة أبي علي الحسن الوزان الفاسي المعروف عند الأفرنج باسم ليون الأفريقي (Léon l, Africain) ، وكان هذا الرجل العظيم من أصل أندلسي ، نشأ في فاس وتجلى فيه الذكاء منذ الصغر ، فتعلم العلوم الدينية والأدبية ثم ساح في بلاد المغرب الأقصى أوائل المائة العاشرة وكتب رحلات ومفكرات في جغرافية تلك البلاد بناها على مشاهداته ، ورحل إلى الروم ومصر والحجاز ، وكان في بعض رحلاته سفيراً عن بعض ملوك المغرب الأقصى في زمن الدولة الوطاسية ، وارثة الدولة المرينية « دولة العلم والعرفان والفن الرائق الفتان » وقيام الدولة السعدية في الجنوب ، ووقع للوزان أن أسره قرصان البحر من الطليان فأتوا به هدية لطيفة إلى البابا ليون العاشر في رومية ، وكانت إيطاليا آخذة بنهضتها في عهد ذاك البابا العظيم حامي المعارف والآداب فوجد في الرحالة الوزّان ضالته المنشودة لخدمة المعارف ، وبعد موت البابا سنة ١٥٢١ م ٩٢٧ هـ دخل الوزّان تحت حماية الكردينال « جيل دي فيطرب »

وكان يعلمه العربية ، ثم تولى مدة تدريس العربية فى كلية بولونيا فى إيطاليا ؛ وفى ذلك تعلم الايطالية واللاتينية ، وكان من قبل يعرف الاسبانية والعبرانيــة . وألف هناك قاموسه الطبي باللاتينية والايطالية ... وأهم ما نقله بنفسه إلى الايطالية بأمر البابا كتابه فى وصف أفريقية ، وقد جوّد فى هذا الكتاب من وراء الغاية حتى جعله الغربيون أعظم مرجع لهم للوقوف على تلك الأرجاء الشاسعة . وصف فيه كل ما رآه من طبيعتها وأجوائها وحاصلاتها وعالمها وأخلاقها وعاداتها

وقد طبع كتاب الوزّان من القديم فى إيطاليا وفرنسا غير مرة ؛ وعلق عليه ناشروه شروحاً كثيرة واستفادوا منه . فصل كل ذلك الأستاذ المؤلف تفصيل باحث محيط بأطراف موضوعه . وأجاب من اعترضوا عليه مستغربين نبوغ المترجم له فى سن الفتوة فقال : « دخل الوزّان معترك الحياة دخول أبطال الرجال على حداثة سنّ جلي وأبلى بلاء تجده غريباً فى حياة الرجال . نعم ذلك غريب إذا قيس بسنه ، ولكن لا بدع هناك فى حق الشباب المغربى ، فقد حفظ له التاريخ أعمال كثير من أفراده المبكرين فى النبوغ العلمى والسياسى ، وذلك باب فتحه المولى إدريس بن إدريس رمز الشباب المغربى العربى بما فيه من نبوغ وكفاءة ، ومثال الفضيلة المحمدية ، والشمم الهاشمى ، والعبقرية القرشية . فقد بويع وهو ابن إحدى عشرة سنة وقام بالملك أحسن قيام وأسس دولة من أفخر الدول تأسيساً ونظاماً ، وأسس لملكته عاصمة من أفخر العواصم ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، لم يؤسس العرب مدينة أحسن منها مناخاً ولا أليق منها بقمة للعمران ، ومات بعد أن بلغت دولته العنفوان ، وهو ابن ست وثلاثين ســنة ، وله نظائر فى تاريخ المغرب نبغوا مبكرين فى مختلف مظاهر الحياة لا نطيل بهم ، ومنهم المترجم »

— ٢ —

هذا هو الجزء الأخير من تاريخ الصحافة تصنيف الأستاذ فيليب طرازى أمين دارى الكتب والآثار فى بيروت ، وقد اشتغل فى هذا الموضوع الطريف أربعاً وأربعين سنة وصرف فيه مالاً ووقتاً وجهداً حتى تسنى له اقتناء مجموعة من الصحف والمجلات العربية التى صدرت فى القارات الخمس منذ عام ١٨٠٠ م إلى عام ١٩٢٩ وبلغ عدد ما لديه من أعداد هذه الصحف والمجلات وهو يحرص على العدد الأول منها فى الغالب — نيفا وثلاثة آلاف ومائتين وخمسين جريدة ومجلة ، فكان عدد ما صدر من المجلات فى المملكة المصرية منذ تكوين الصحافة إلى سنة ١٩٢٩ : ١٣٩٨ جريدة ومجلة وعدد ما صدر فى بلاد الشام ٧٧٩ كان من حصة الجمهورية اللبنانية ٤٢٦ الخ واتضح « أن بعض المدن النائية فى أوربا وأمريكا والتى لا ينطق سكانها بالضاد فاقت بعدد جرائدها ومجلاتها كثيراً من عواصم الدول وشهيرات المدن الواقعــة فى صميم البلدان العربية ويعزى ذلك الى هجرة العدد الوافر من الكتاب فى عهد الدولة العثمانية . فقد كانت هذه الدولة تضطهد المفكرين والمثقفين من سكان بلادها وتشدد عليهم وتخاف صرير أقلامهم . ويرجع أكثر الفضل فى هذه النهضة الصحافية الميمونة إلى أدباء لبنان الذى نزح منه مئات الألوف الى تلك الديار العامرة ولا سيا إلى العالم الجديد ، ويقع هذا الجزء فى ٥٤٥ صفحة وقد ترجمت أكثر فصوله إلى الانجليزية ليعم الانتفاع بهذا الاحصاء ، ويستفيد الغربى كما يستفيد العربى من مضامين الكتاب عند ما يرا د الكشف عن جريدة ومعرفة منشئها الأول وتاريخ صدورها والمدينة التى صدرت فيها الى غير ذلك من الفوائد . وفى الحقيقة إن للبنانيين الأثر المحمود فى إصدار الصحف فى الشرق والغرب باللغة العربية ، وكان للمؤلف الفضل الأوفر فى تدوين أعمالهم والتدليل عليها باحصاءاته المدققة ، فله الشكر على هذه العناية وهذا الدؤوب

— ٣ —

الأمير فخر الدين المعنى الثانى أعظم أمير عربى قام فى النصف الأول من القرن الحادى عشر من الهجرة فى جبل لبنان وما اليه من بلاد الشام . كان واسع المدارك محباً للعمران والحضارة ، انتفع بكل قوة وجدها أمامه ، وإذ كان حكمه يتناول الدروز والشيعة والسنة والموارنة والروم الأرثوذكس وغيرهم من النحل فى الساحل الشامى ، ويريد أن يرضى كل فريق بنمط السياسة التى جرى عليها ، اتهمه بعضهم بأنه كان يذهب مذهب الدروز ، وفريق بأنه كان نصرانياً ، والحقيقة أنه كان مسلماً يرى رأى أهل السنة والجماعة ، وكان قد لجأ إلى ايطاليا فى أخريات أيامه فأخذ معه إمامه وأنشأ مسجداً ومنارة فى البلد الذى نزله حتى أن فتاة له ماتت هناك لم يرض أن يدفنها فى أرض إيطاليا ، وحملها معه الى الشام لما عاد اليها لتدفن فى أرض اسلامية . وأهل لبنان

يتمجدون بالأمير المعني لأنه حكم النصارى فأحسن إليهم ما وسعه الاحسان ، واعتمد في الحكم على بعض نبهائهم يومئذ . ولذلك كان من الواجب تدوين تاريخه ، والجمهورية اللبنانية الصغيرة في إبان نشأتها تحاول أن تجعل لها تاريخاً تعتز به ، وقد تخلقه خلقاً ، فكيف بتاريخ رجل جدير من كل وجه بالتخليد ؟ وهذا ما تمحض له زمناً الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، واستطرد في كتابته استطرادات كثيرة حتى جاء كتابه في ٤٤٦ صفحة ، مستنداً فيه الى مصادر لبنانية وغيرها ، باحثاً عما يهم ومالا يهم من الحوادث التي لها مساس بحاكم حكم لبنان من سنة ١٥٩٠ إلى سنة ١٦٣٥ م ، وكان قضي في الآستانة مقتولاً سنة ١٠٤٥ هـ . وقد حلّى المؤلف كتابه بصور أثرية قديمة تمثل حالة البلاد في عصر الأمير المعني ، وشرح كل ما رآه جديراً بالشرح في الحواشي ، فاستحق شكر الباحثين في تاريخ هذا الجزء الصغير من الديار الشامية

محمد كرد علي

تصويب

جاء في القسم الأول من وصف كتاب البيزرة في الرسالة (١١٣) اسم المؤرخ التركي « طاش كبرى زاده » صاحب مفتاح السعادة عرضاً ، وهذا صوابه . كما أن ما جاء عن « جامع السعادة » صوابه « مفتاح السعادة » كما هو مكتوب في موضع آخر من المقالة